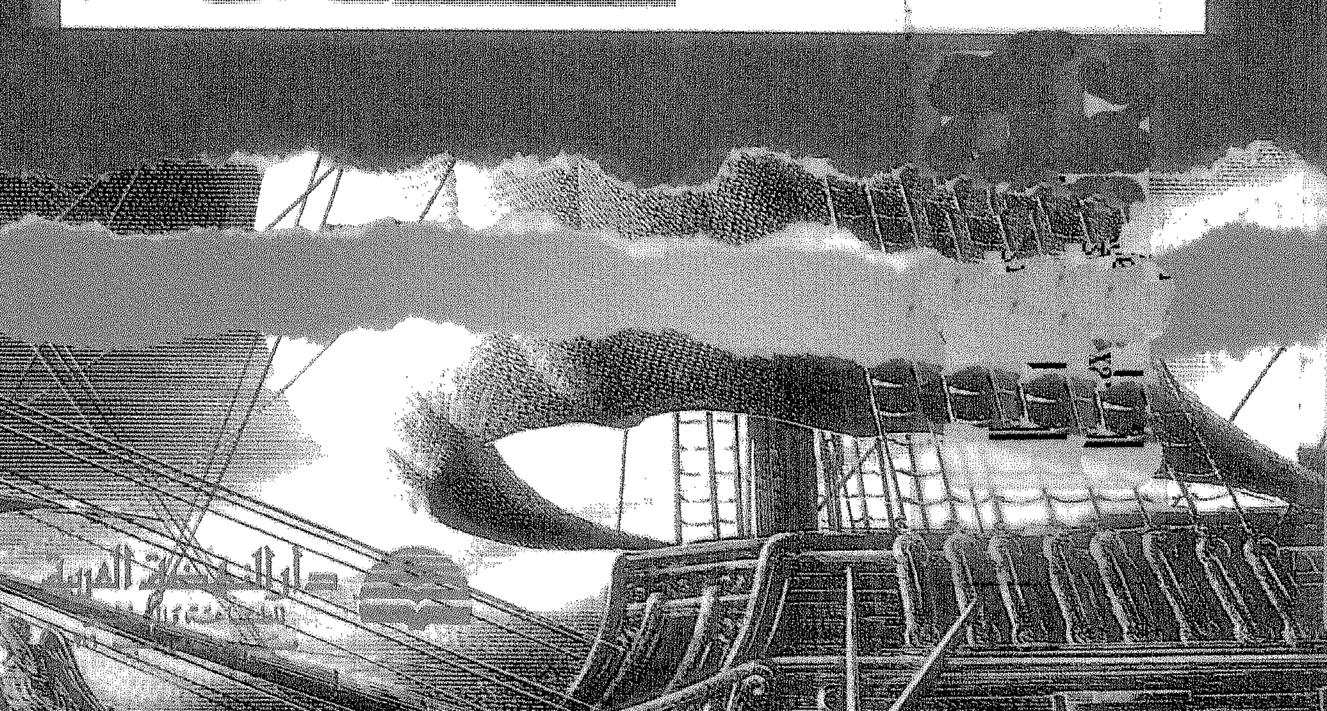
دكتور سعدون عباس نصر الله

رحيل الصليبيين عن الشرق

في العصور الوسطى

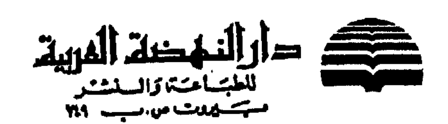


رحيل الصليبيين عن الشرق
في العصور الوسطى

رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى

تأليف

دكتور سعدون عباس نصر الله



الناشر

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

الإدارة: بيروت ـ شارع مدحت باشا ـ بناية كريدية
تلفون : 818704 ـ 818705
برقياً : دا نهضة ـ ص. ب: 749 ـ 11
تلفاكس: 232 ـ 4781 ـ 212 ـ 001

المكتبة: شارع البستاني ـ بناية اسكندراني رقم 3
غربي جامعة بيروت العربية
تلفون: 316202 ـ 818703

المستودع: بئر حسن، خلف تلفزيون المشرق
بناية كريدية ـ تلفون: 833180

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المماليك فئة ظلمها التاريخ والمؤرخون كما ظلموا غيرها في عالمنا العربي. فهذه الفئة من الناس تشتت وبعدت عن مسقط رأسها لأن «أرض الله واسعة» بظروف قاسية حجبت حقيقتها التي تجلت في أعمالها فيما بعد. انتزع أفرادها من موطنهم الأصلي إلى مناطق بعيدة وبيعوا أطفالاً في بلاد غريبة ونشأوا خدماً في كنف السلاطين تحت اسم المماليك، أي «المستعبدين» نتيجة الطريقة التي وصلوا فيها إلى بلادنا.

وقدر لهذه الفئة التي شبت في هكذا ظروف أن تقوم بدور عجزت عنه الملوك حيث تم على يدها وفي ظل قيادتها طرد الغزاة من شرقيين وغربيين الذين أرادوا استعباد الشرق العربي الذي:

أرضه لم تعرف القيد ولا خفضت إلا لباريها الجبين

فالمغول الذي اجتاحوا العالم الإسلامي الشرقي كانت نهاية مطافهم في عين جالوت على يد هذه الفئة المجاهدة. فعاد من بقي منهم على قيد الحياة يجر ذيول الخيبة متجلبباً بثوب الهزيمة التي لم يذق مثلها في تاريخه العسكري والصليبي الطامع بالشرق تحت راية الصليب ظن أنه باحتلاله بعض أجزائه في ظروف التفكك والإنهيار في عهد حكام لا هم لهم إلا ملذاتهم، كانت نهايته ورحيله بفضل سواعد هذه الفئة التي عاشت هموم الشرق ومآسيه لأنها أضحت جزءاً منه بعد أن تغذت من خيراته وأصبحت من أبناء البلاد وإن لم تكن بالمنشأ بل بالاستمرار في الحياة، فأبناؤها لا شك أصبحوا أبناء الشرق العربي مولداً ونشأة وحضارة، هذه الفئة امتشقت

الحسام وطردت الغربي بعد أن توهم أنه باق في الشرق إلى الأبد.

صحيح أن معركة تحرير الشرق من الاحتلال الصليبي بدأت منذ وقت مبكر على وجود المماليك أيام الزنكيين والأيوبيين الأوائل. ولكن عملية التطيهر الحقيقية تمت في عهد هذه الفئة وعلى يدها منذ سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م حتى تم طرد وإجلاء آخر جندي صليبي عن الشرق في العصور الوسطى. إنصافاً للحقيقة التاريخية وإعطاء هذه الفئة حقها لما قامت به من أعمال إطلاق ما تستحقه من الألقاب لأعمالها الجليلة وهو «الاحرار» بدل المماليك. وقد قال الإمام علي عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً».

لقد أنزلت البحث في سبعة فصول، يتضمن الفصل الأول تحرير القدس على يد الفرسان الخوارزميين حتى معركة غزة مع الصليبيين وبحثت في الفصل الثاني الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع ووصولها إلى قبرص واتصال ملكها من هناك بالمغول لإقامة تحالف معهم ضد المسلمين، ثم زحفه إلى مصر واحتلال دمياط والمنصورة ووفاة السلطان الصالح نجم الدين وتولى الحُكم ابنه تورانشاه والهزيمة التي لحقت بلويس وجيشه حيث استسلم ووقع أسيراً بيد المسلمين وإطلاق سراحه بفدية كبيرة.

ويتحدث الفصل الثالث عن مقتل السلطان تورانشاه وبدء الصراع بين الإيوبيين والمماليك وانتصار الآخرين حيث فازوا بالسلطة، واعتلاء العرش شجر الدر أول سلطانة في العالم الإسلامي ثم تولية أيبك زوجها العرش حيث دار قتال مع الناصر الأيوبي يوسف الذي انهزم، وتدخل الخليفة العباسي لحل النزاع حيث كللت مهمة مبعوثه البادرائي بالنجاح في إصلاح الحال ما بين المسلمين.

ويشير الفصل الرابع إلى الصراع بين المماليك أنفسهم، بين أيبك وأقطاي وشجر الدر التي اغتالت زوجها المعز أيبك ثم قتلها.

ويتحدث الفصل الخامس عن اجتياح المغول للعالم الإسلامي الشرقي واحتلال بغداد وبلاد الشام والزحف نحو مصر. هذا القسم الأول منه. ويشير

القسم الثاني إلى معركة عين جالوت حيث تمت هزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم العسكري.

والفصل السادس أغنى. انسمول حيث وصل بيبرس إلى السلطة بعد صراع مرير وتلقب بالظاهر، قاد عمليات التحرير لطرد الغزاة الصليبيين، وتوّج عملياته العسكرية باسترجاع إنطاكية أول مدينة احتلها الصليبيون مع عدد من الحصون المنيعة والمدن المحتلة. حصن الأكراد وحصن عكار والشقيف وبغراس وقيسارية وأرسوف وصفد، وأرسل حملة بحرية إلى قبرص، وسمت همته أنه شارك بصفة عضو عادي متنكراً في الوفد الذي ذهب إلى طرابلس لمفاوضة حاكمها الصليبي، وذلك ليطلع على تحصينات المدينة تمهيداً لمهاجمتها. وفي عهده أرسل الأوروبيون عدة حملات: الحملة الثامنة والبريطانية والفرنسية بقيادة لويس التاسع إلى تونس بعد هذا الجهاد الطويل وافته المنية بعد أن وفى قسطه للعلى خلفه ابنه السعيد محمد بركة ثم سلامش.

والفصل الأخير يشير إلى سلطنة قلاوون المنصور حيث حرر مدينة طرابلس وابنه الأشرف خليل حقق إجلاء الصليبيين عن عكا وسائر الساحل حيث تم طرد آخر جندي صليبي عن الشرق في العصور الوسطى. حقاً إنهم الأحرار لأن الحر هو الذي يحرر.

فمتى يتم طرد الغزاة الذين اجتاحوا العالم الإسلامي الشرقي وخاصة فلسطين في القرن العشرين وعلى يد من؟

والله ولي التوفيق

بعلبك في ٢٠ تموز١٩٩٥
٢٠ صفـر ١٤١٦هـ

الفصل الأول

تحرير القدس

في سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م اجتاح الفرسان الخوارزميون وهم من الرجال الأشداء يتراوح عددهم بين عشرة آلاف واثني عشر ألف رجل[١] بلاد الشام، واتجهوا نحو الجليل[٢] فاستولوا على طبرية ثم ساروا نحو مدينة القدس.

والفرسان الخوارزميون من مدينة خوارزم في أواسط آسيا[٣] وقد فتحها العرب سنة ٦١ هـ/ ٦٨٠م في عهد والي خراسان سلم بن زياد[٤] واعتنق سكانها الدين الإسلامي وساهموا في الفتوحات العربية.

وفي مطلع القرن السابع الهجري كان سلطانهم جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه لقي مصرعه سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م على يد التتار بالقرب من آمد[٥]. فتفرقوا وعاثوا فساداً في شمال بلاد الشام ناشرين الدمار في الأماكن التي حلوا فيها. ثم تجمعوا من جديد ودخلوا في خدمة السلطان علاء الدين السلجوقي في سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧[٦] وكان عددهم يزيد على ١٢ ألف فارس[٧]، يترأسهم جماعة من الأمراء منهم حسام الدين بركة خان وكشلوخان وفرخان. وبعد وفاة السلطان خلفه ابنه كيخسرو فقبض على بركة خان أكبر

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٢ ـ المقريزي: كتاب السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٦.
(٢) رنسيمان: ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩١ ـ المطران الدبس: يوسف جـ ص.
(٣) ياقوت: معجم البلدان م ٢ مادة خوارزم.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٣ ص ١٥٠.
(٥) اليافعي المكي: مرآة الجنان جـ ٤ ص ٦٧.
(٦) مرآة الجناه جـ ٤ ص ٨٦.
(٧) مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٣٤ ـ كتاب السلوك جـ ١ ق ٢ ـ ص ٣١٦ العدد يزيد على ١٢ ألف.

الأمراء فاضطروا للهرب وعبروا الفرات[١]. استمالهم الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، وكتب إلى والده الملك الكامل يستأذنه باستخدامهم فسمح له بذلك، وأقطعهم مواقع بالجزيرة. ثم افتدى رئيسهم بركة خان من كيخسرو[٢].

أدرك الصليبيون الخطر المحدق بهم، فأسرع إلى مدينة القدس البطريرك روبرت ومعه مقدما الدواية والاسبتارية وعززوا حاميتها واستحكاماتها. ورغم هذه الاستعدادات اقتحمها الخوارزميون في سنة ٦٤٢ هـ/ ١١ تموز ١٢٤٤م. ودار قتال في الشوارع واستطاع الفرسان من الوصول إلى دير القديس يعقوب التابع للأرمن فأجهزوا على من فيه، وقتلوا حاكم القدس الصليبي وكذلك مقدم الاسبتارية[٣].

استنجد صليبيو القدس بالناصر الأيوبي داوود أمير الكرك، ولم يكن يميل إليهم ولكنه كان متحالفاً معهم وهو يضمر لهم الحقد والكراهية[٤] والخلافات مع أقاربه الأيوبيين اضطرته إلى ذلك التحالف، فأرسل قوة مهمتها طلب الأمان لهم من الخوارزميين والسماح لهم بمغادرة المدينة إلى الساحل[٥]، إذا استسلمت حامية القلعة. وفي آب ١٢٤٤ م/ ٦٤٢هـ غادر المدينة حوالي ستة آلاف وتركوها للخوارزميين[٦].

وبينما هم في طريقهم إلى يافا تطلع بعضهم نحو القدس، فرأوا الأعلام الصليبية فوق أبراجها فغمرهم الحماس واعتقدوا أن نجدة قدمت لمساعدتهم. لكنها كانت خدعة لجأ إليها الخوارزميون، وأصر عدد منهم على العودة، فوقعوا في كمين أعده المسلمون تحت أسوار المدينة وهلك منهم حوالي ألفين، وفر الباقون وطاردهم العرب أثناء فرارهم إلى يافا فلم

(١) مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٠٥.
(٢) كتاب السلوك جـ ١ ق ٢ ص ١٣٥.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٢.
(٤) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٢.
(٥) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٨٢ ـ تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦.
(٦) تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦.

يصل إلى المدينة سوى ٣٠٠. رجل[١] وهكذا خرجت القدس نهائياً من أيدي الصليبيين ولم تعد إليهم إلا في مطلع القرن العشرين ١٩١٨م/ الثالث عشر هجري.

أمعن الخوارزميون القتل والتدمير والنهب في المدينة، اقتحموا كنيسة القيامة وأحرقوها، وأخرجوا عظام ملوك القدس أثناء مدة احتلالها ونثروها. وهدموا المقبرة التي ساد الاعتقاد بأن المسيح مدفون فيها[٢]. ودخلوا جبل صهيون وكنيسة وادي يوشافاط حيث دفنت العذراء ـ كما يسود الاعتقاد ـ ثم هاجموا بيت لحم ودمروا كنيستها[٣].

ورفض بعض رهبان القدس مغادرة المدينة فلقوا مصرعهم، ونهبت الدور والحوانيت[٤].

بعد أن أضحت المدينة قاعاً صفصفاً غادروها إلى غزة وأرسل إليهم الملك الصالح يطلب منهم التوقف فيها لملاقاتهم[٥] وبعث إليهم جمال الدين آقوش وجمال الدين بن مطروح[٦].

أثناء وجود الخوارزميين في القدس بدأ الصليبيون يحشدون قواتهم خارج مدينة عكا. وتحالف معهم الأمير الأيوبي المنصور إبراهيم أمير حمص والناصر إسماعيل صاحب دمشق[٧]. وسار المنصور إلى عكا ثم إلى غزة مع الصليبيين، وقدمت نجدة إليهم من الناصر داوود صاحب الكرك ـ بعد أن كان موقفه سلبياً من الصليبيين، بقيادة الظهير بن سنقر الحلبي والوزيري[٨]. وكان مسيرهم في ٤ تشرين الأول ١٢٤٤/مطلع جمادي الأول ٦٤٢هـ.

---

(١) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٢ ـ تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦.
(٢) مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٨ ـ كتاب السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٦.
(٣) تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦.
(٤) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٢.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤.
(٦) مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٨ ـ السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٣١٦ ـ تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦.
(٧) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤ ـ تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦.
(٨) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧ ـ خطط الشام جـ ١ ص ٩٨ يشير إلى التحالف أبو الفداء ـ المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٧٢ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤.

كان الجيش الصليبي أكبر جيش أعد منذ معركة حطين[١]، إذ كان عدد فرسانه ٦٠٠ فارس بقيادة فيليب مونتفورت حاكم تبنين وصور ووالتر بريين كونت يافا. وأرسل الداوية والاسبتارية حوالي ٣٠٠ فارس بقيادة المقدمين أرمان بريجورد ووليم شاتونيف. وأرسل بوهيموند قوة بقيادة أبناء عمومته يوحنا ووليم سيدا البترون ويوحنا سيدهام كند سطبل طرابلس ساهم بكتيبة فرسان، وكذلك رئيس أساقفة مدينة صور وأسقف الرملة. وسار الجيش المتحالف نحو غزة[٢].

كان الجيش المصري معسكراً أمام غزة بقيادة ركن الدين بيبرس وعدده حوالي خمسة آلاف جندي بالإضافة إلى الفرسان الخوارزميين[٣] مع من انضم إليهم من القيمريين الذي قدموا معهم من الشرق[٤].

وقعت المعركة بين الفريقين نهار الاثنين ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤م/ ١٢ جمادي الأول[٥] ٦٤٢ على مسافة بضعة أميال شمال شرقي غزة في قرية تدعى الحربية. كان الجيش المتحالف منظماً قواته، الصليبيون في الميمنة، وجند الكرك في الميسرة وجيش المنصور في القلب، وقد رفع الصليبيون الصلبان فوق رؤوس حلفائهم المسلمين. كانت قوات المنصور تفوق الجيش المصري عدداً[٦].

وأحاط الخوارزميون بالصليبيين وأمضوا فيهم قتلاً وأسراً.

وانجلت المعركة عن نصر مبين حققه المسلمون على القوى المتحالفة[٧] فبلغ عدد القتلى منهم ٥ آلاف[٨] وعدد الأسرى حوالي ٨٠٠ أسير منهم الظهير

---

(١) خطط الشام جـ ١ ص ٩٨ ـ المختصر جـ ٣ ص ١٧٢.

(٢) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٣.

(٣) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٣ ـ أبو شامة ص ١٧٤.

(٤) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٦ والقيمرية نسبة إلى قلعة قيمر بين الموصل وخلاط.

(٥) من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦ ـ أبو شامة ص ١٧٤.

(٦) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤ ـ أبو شامة ١٧٤ يشير أن قائد قوات الصليبيين هو المنصور صاحب حمص.

(٧) خطط الشام جـ ١ ص ٩٨ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤ ـ المختصر جـ ٣ ص ١٧٢.

(٨) مفرج الكرب جـ ٥ ص ٣٣٩ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٠٥ ـ السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧ والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦ عدد القتلى ٣٠ ألفاً.

بعد إصابته بجراح[١] وكونت يافا كوتيادي بريان ابن أخ ملك القدس يوحنادي بريان[٢] ومقدم الاسبتارية[٣]. ونجا من الهيكليين ٣٣ فارساً ومن الاسبتاريين ٢٥ فارساً ومن فرسان يوحنا ثلاثة فقط[٤]. ولاذ المنصور بدمشق[٥] وغنم المسلمون غنائم لا تحصى[٦].

وصلت بشائر النصر إلى الملك الصالح في القاهرة في ١٥ جمادي الأول ٦٤٢/ ٢٠ تشرين الأول ١٢٤٤م فغمره السرور وأمر بتزيين المدينة وقلعتي الجبل والروضة[٧]. ثم وصلت قوافل الأسرى ورؤوس القتلى، ومن الأسرى الظهير. كان الصليبيون يركبون الجمال ومقدموهم الخيول. وطيف بهم في شوارع المدينة، وعلقت الرؤوس على أبوابها وامتلأت السجون بالأسرى. فكان يوماً مشهوداً في تاريخ القاهرة[٨].

كان لمعركة غزة نتائج بعيدة المدى بالنسبة للصليبيين، فقد غضب البابا على ملكهم لفشله في المعركة وأرسل إليه جماعة ليغتالوه. عرف الملك بالأمر فاحتاط واحتال عليهم بأن أقعد مكانه إنساناً آخر شبيهاً به فقتلوه، اعتقلهم وصلبهم جزاء عملهم الإجرامي[٩].

لقد أفقدتهم ما أحرزوه من مكاسب طارئة خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي/التاسع الهجري، وأصابتهم بخسائر بشرية فادحة.

جعلتهم عاجزين عن الاحتفاظ إلا ببعض القلاع والحصون الساحلية. وقد بعث برسالة روبرت بطريرك القدس واتريكس مطران الناصرة وزعماء

---

(١) مرآة الزمان جـ ٤ ص ١٠٥ ـ مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٣٩ ـ السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧.
(٢) تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٧.
(٣) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٥.
(٤) تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦.
(٥) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧.
(٦) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧ ـ خطط الشام جـ ١ ص ٩٨ ـ البداية جـ ١٣ ص ٦٥.
(٧) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧ ـ البداية ١٣ ـ ١٦٥.
(٨) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٧.
(٩) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧١.

الصليبيين إلى أساقفة فرنسا وانكلترا مؤرخة في ٢٣ تشرين الأول ١٢٤٤/ ١٨ جمادي الأول ٦٤٢ أي بعد أسبوع من وقوع المعركة مع المسلمين يطلبون المساعدة منهم للاحتفاظ بما تبقى بأيديهم من المناطق التي احتلوها وإلا خسروا[١] حسب عرفهم الأرض المقدسة إذا تأخرت النجدات حتى آذار ١٢٤٥/ شوال ٦٤٢ هـ.

وفي الداخل تهاوت مراكزهم تحت ضربات المسلمين الذين بثوا سراياهم إلى أبواب عكا يجبون الأموال التي كان النصارى يفرضونها على السكان الذين أيدوا الخوارزميين[٢] فقد استولى الجيش المصري الذي كان يقوده الأمير فخر الدين يوسف على طبرية وقلعتها وهدم الحصون والقلاع المستجدة سنة ٦٤٤هـ[٣]. ثم على جبل الطور وحصن شقيف أرنون[٤]. بعدها زحف نحو عسقلان وكان يقود الجيش الأمير بيبرس وابن أبي علي[٥]. كانت عسقلان مدينة محصنة فيها استحكامات شيدها هيو دوق برجنديا وأمدها الاسبتارية بفرقة عسكرية، وأتتها النجدات من عكا وقبرص إذ أرسل هنري ملك قبرص أسطولاً من ثمان شواني تحمل مئة فارس بقيادة بلدوين ابلين إلى عكا. وجهز ملك عكا سبع شواني وخمسين سفينة خفيفة لمساعدة عسقلان[٦].

لم يستطع الجيش المصري من دخول المدينة[٧] فلجأ إلى حصارها بقيادة بيبرس وجلب لهذه المهمة السفن من مصر لمراقبة السواحل[٨]. ورحل ابن أبي علي إلى نابلس[٩].

---

(١) من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٦ و ٢٥٧.
(٢) المختصر جـ ٣ ص ١٧٦ ـ السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٨.
(٣) السلوك ص ٣١٨.
(٤) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٩.
(٥) السلوك ص ٣١٨.
(٦) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٩.
(٧) السلوك ٣١٨.
(٨) السلوك ٣١٨.
(٩) السلوك ٣١٨.

حمل الخوارزميون كونت يافا الأسير وهددوا بقتله إذا لم تستسلم المدينة. وصلت سفن المصريين وعددها إحدى وعشرون سفينة لتشديد الحصار، وتقدمت للقاء الأسطول الصليبي فهبت عليها عاصفة حطمت أكثرها والتي سلمت عادت إلى مصر[١]. وأصبح بإمكان الأسطول الصليبي التحرك بحرية فأمد المدينة بالمؤن والذخائر وأنزل المقاتلين إلى البر[٢].

غير أن العاصفة البحرية استمرت واضطرت سفن الصليبيين للعودة إلى عكا تاركة عسقلان لمصيرها المحتوم. واستفاد المصريون من حطام السفن في تضييق الحصار على المدينة، ثم اقتحموها ووصلوا إلى قلعتها نهار الخميس ١٢ جمادي الآخرة ٦٤٥هـ ١٥ تشرين الأول ١٢٤٧م ولقي المدافعون مصرعهم وأسر من بقي على قيد الحياة. وأمر السلطان الصالح بتدمير الحصن فأضحى خراباً[٣].

بعد الهزائم التي مني بها الصليبيون أدركوا أن بقاءهم في الشرق والاحتفاظ بالقدس يتوقف على احتلالهم لمصر[٤].

وبعد معركة غزة غادر أسقف بيروت جاليران عكا في ٢٤ رجب ٢٧/٦٤٥ تشرين الثاني ١٢٤٧م إلى الغرب أوفده روبرت بطريرك القدس ليطلب الأمدادات للمحافظة على المملكة لأنها مهددة بالزوال[٥].

عقد البابا أينوثنسيوس[٦] في حزيران ١٢٤٥/٦٤٢ مجمعاً كنيساً في مدينة ليون للتشاور في اتخاذ قرار ضد الأمبراطور فردريك الثاني.

---

(١) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٩٩.
(٢) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٠٠.
(٣) السلوك جـ ١ ص ٣٢٧ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٢ يشير فقط إلى فتح المدينة ـ المختصر جـ ٣ ص ١٧٦ يشير إلى فتح المدينة.
(٤) مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٥١ ـ السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٣٤.
(٥) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٠.
(٦) من تاريخ سوريا جـ ٥ ص ٢٥٨.

رفض ملك فرنسا لويس التاسع[1] قرارات البابا ضد الأمبراطور التحق بالبابا في مركزه جاليران وشرح له حالة النصارى في الشرق وكذلك بطريرك انطاكيا ألبرت. ولدى سماعه بحالة الصليبيين في الشرق، استنفر الغرب المسيحي لتجهيز حملة إلى الشرق المسلم. وتطوع الملك لويس التاسع لقيادة الحملة إذا برىء من مرضه وكان له ما أراد فأقره البابا على ذلك[2] وكذلك أرسل الكاردينال أودو أسقف فراسكاتي لدعوة الفرنسيين للأنضام للحملة[3]. ووافق مجمع ليون على إنجاد الصليبيين في سوريا والقسطنطينية وأن يدفع الأكليركيون واحداً من عشرين من تكاليف الحملة والبابا والكرادلة العشر من دخلهم للغاية ذاتها[4].

استغرق الأعداء للحملة ثلاث سنوات، إذ تقرر فرض ضرائب إضافية للمساهمة في تجهيزها. واستجابت جنوه ومرسيليا لطلب الملك لويس بتأمين السفن اللازمة لنقل الجنود إلى الشرق واستاءت البندقية من ذلك لأنها كانت تقيم علاقة تجارية رابحة مع مصر. أما الأمبراطور فردريك فرغم تأييده للحملة فقد اطلع السلطان عليها[5].

(١) تسميه المصادر العربية ريد فرانس أي Roide France ويصفه ابن العبري بالملك القديس والبطل الصنديد ص ٤٥٢ حاشية رقم ١ وقد وقع أسيراً في معركة المنصورة وهذا دليل على بطولته.

(٢) من تاريخ سوريا جـ ٥ ص ٢٥٨.

(٣) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤١.

(٤) من تاريخ سوريا جـ ٥ ص ٢٥٨.

(٥) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٢.

الفصل الثاني

انطلاق الحملة الصليبية السابعة إلى الشرق

في ٢٥ آب ١٢٤٨/ ٦٤٧هـ غادر لويس التاسع أيج مورتز متوجهاً نحو قبرص على أسطول مؤلف من مئة وعشرين مركباً كبيراً وألف وخمسماية سفينة صغيرة وصحبه في رحلته زوجته الملكة مرغريت وأخواه روبرت كونت أرتوا وشارل كونت أنجو[١] ثم لحق به إبنا عمه هيودوق برجنديا وبطرس كونت برتياني ووليم دامبير كونت فلاندر، وابن عمه يوحنا جوانفيل مؤرخ الحملة مع عدد من كونتات أوروبا، غادر بعضهم من أيج مورتز والبعض الآخر من مرسيليا[٢].

وصل الأسطول الصليبي إلى ليماسول في جزيرة قبرص في ١٧ أيلول ١٢٤٨/ ٦٤٧هـ[٣] وتجمع في الجزيرة أفراد الحملة وعددهم خمسون ألفاً[٤]. وقدم إلى الجزيرة نائب مقدم الاسبتارية يوحنا روناي ومقدم الداوية وعدد من بارونات سوريا. استقبل ملك قبرص هنري لوزينيان الحملة بمظاهر الضيافة والترحيب[٥] وسار بهم إلى نيقوسيا[٦].

عقد المجتمعون مؤتمراً حربياً لدراسة أوضاع الصليبيين في الشرق، ورأوا أنهم إذا أرادوا لبقائهم في الشرق والاحتفاظ بالقدس لا بد من احتلال

(١) من تاريخ سوريا جـ ٥ ص ٢٥٩.
(٢) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٣.
(٣) شفاء القلوب ٣٧٩.
(٤) المختصر جـ ٣ ص ١٧٨.
(٥) شفاء القلوب ٣٧٩ ـ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٤.
(٦) من تاريخ سوريا ص ٢٥٩.

مصر لغناها ولأنها تشكل القوة الرئيسة للمسلمين. لذلك قرروا احتلالها[(١)].

وحاول صليبيو الشرق اقناع الملك لويس بالتدخل بين الأيوبيين المتنازعين على السلطة لإقامة الصلح بينهم إذ كان هناك خلاف سنة ١٢٤٨م/ ٦٤٧هـ بين الناصر يوسف أمير حلب والأشرف موسى صاحب حمص الذي استنجد بسلطان مصر الصالح أيوب وأجرى إتصالاً بالداوية[(٢)]. غير أن لويس رفض هذا الطلب لأنه ليس لديه الوقت للاهتمام بهذه الأمور، وإن قدومه إلى الشرق لقتل المسلمين وتغذية الخلافات بينهم لا لحل مشاكلهم وإقامة الصلح بينهم وأمر الداوية بقطع الاتصال بالأيوبيين[(٣)].

اتصال الملك لويس بالمغول

أثناء إقامة الملك لويس في قبرص وصل إلى مدينة نيقوسيا في تشرين الثاني ١٢٤٨م/ ٦٤٦هـ مرقص وداوود النسطوريان، أرسلهما الجهيداي حاكم الموصل المغولي وحملهما رسالة إلى ملك فرنسا مضمونها عطف المغول على النصرانية.

سر لويس بذلك وورد عليه ببعثة من رهبان دومينيك برئاسة أندرو لونججيمو وأخيه وهما يحسنان اللغة العربية، فغادرا قبرص لمقابلة الجهيداي في مطلع ١٢٤٩م ٦٤٦هـ[(٤)] الذي أرسلهما بدوره إلى منغوليا لمقابلة سيده كيوك، ووصلا متأخرين إذ كان كيوك قد توفي، استقبلتهما أرملته قايميش. ولكن هذا الاتصال لم يؤد إلى نتيجة[(٥)]. فقد كان الملك لويس يأمل بأن يستفيد من قوة المغول لاجتياح العالم الإسلامي، فيسهل عليه عندئذ هزيمتهم في الشرق.

وأثناء وجوده في قبرص استغل الفرصة للإصلاح بين الصليبيين، فأصلح

---

(١) السلوكم جـ ١ ص ٣٣٤ ـ ابن العبري ص ٤٥٢.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٤.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٤٤.

(٤) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٨.

(٥) الحروب الصليبية ص ٤٤٨.

بين الفرسان الهيكليين والاسبتاريين وبين الجنوبيين وأهل بيزا المقيمين في عكا[١]. ثم بدأ بالاستعداد للإبحار نحو مصر على رأس جيش من خمسين ألف جندي[٢]. وطلب من التجار الإيطاليين إمداده بالسفن. رفض البنادقة الطلب لأنهم كانوا ضد مجيء الحملة منذ البداية[٣]. ورغم ذلك الرفض استطاع الملك جمع أسطول في ليماسول مؤلف من مئتي سفينة كبيرة ما عدا الصغيرة[٤].

وفي أيار ١٢٤٩م/ صفر ٦٤٧هـ انطلقت الحملة من قبرص باتجاه مصر وتعرض الأسطول لعاصفة بحرية في المورة أدت إلى تشتته[٥]. وأخيراً في تمام الساعة الثانية في يوم الجمعة ١٢ صفر ٦٤٧هـ/ ٤ حزيران ١٢٤٩م وصلت مراكب الصليبيين إلى مصر ورست قبالة مدينة دمياط[٦]. كان الملك لويس يستقل سفينة القيادة Montjoie وطلب منه مستشاروه عدم الهبوط إلى البر حتى تصل بقية سفن الأسطول فرفض ذلك، ورغم مقاومة الجيش المصري وقبل أن تصل سفينته إلى البر قفز في البحر فغمرته المياه حتى كتفيه وخرج شاهراً سيفه مستعداً لقتال المسلمين. وكان نزوله غرب مصب النهر في دمياط.

كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب في دمشق[٧]. وكان يتوقع أن يهاجم الصليبيون سوريا وعندما علم بأنهم توجهوا إلى مصر أسرع بالعودة إليها، وكان مريضاً. نزل في أشموم طناح في محرم ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[٨] وعهد بقيادة الجيش إلى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وأمره بأن

---

(١) من تاريخ سوريا جـ ٥ ص ٢٥٩.

(٢) شفاء القلوب ص ٣٧٩ ـ السلوك ص ٣٣٣ لم يحدد العدد.

(٣) الحروب الصليبية ٤٤٩.

(٤) بدائع الزهور ص ٢٧٧.

(٥) الحروب الصليبية ٤٤٩.

(٦) شفاء القلوب ٢٧٩ ـ مرآة الجنان ص ١١٦ جـ ٤ ـ السلوك ٣٣٣ ـ المختصر جـ ٣ ص ١٧٩ ـ العبري ٤٥٢ أبو شامة ١٨٣.

(٧) السلوك ص ٣٣٣ ـ ابن العبري ٤٥٢ ـ من تاريخ سوريا ٢٥٩ جـ ٦.

(٨) الذهبي ١٩٢ ـ من تاريخ سوريا ٢٥٩ ـ جـ ٦ السلوك ٣٣٣.

يقيم معسكره على جيزة دمياط ليتصدى للصليبيين إذا قدموا[1] ونزل الأمير في المكان الذي حدده له السلطان وصار النيل بعد وصول الصليبيين يفصل بين الفريقيين. وكذلك طلب السلطان من الأمير حسام الدين بن أبي على نائبه في القاهرة أن يجهز الشواني المصرية الصنع، فشرع في العمل وسيرها إلى حيث يحتاجها الجيش[2] وكذلك شحن دمياط بالمؤن والذخائر وجميع ما تحتاجه من الآلات العسكرية وأمد الجيش كذلك بفرقة من فرسان قبيلة كنانة العربية المشهورين بالشجاعة[3].

وأرسل على الفور الملك لويس كتاباً إلى الملك الصالح يهدده ويتوعده[4] «أما بعد فإنه لم يخف عليك أني أمين الأمة العيسوية كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان وتخلى منهم الديار وقد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية. فلو حلفت لي بكل الإيمان ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتلك في أعز البقاع إليك فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي. وإن كانت البلاد لك الغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ وقد عرّفتك وحذرتك من عساكر قد حصرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضا».

فلما وصل كتاب لويس إلى السلطان وقرىء عليه اغرورقت عيناه بالدموع. وقال: إن الله وإنا إليه راجعون.

والكتاب من صياغة إنسان يحسن اللغة العربية جيداً.

رد السلطان عليه بكتاب كتبه القاضي بهاء الدين زهير بن محمد كاتب السلطان. وهذا نصه[5]:

---

(١) السلوك ص ٣٣٣ ـ المختصر جـ ٣ ص ١٧٩.
(٢) السلوك ٣٣٣ ـ المختصر ١٧٩ ـ من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٥٩.
(٣) شفاء القلوب ٣٧٩ ـ ابن العبري ص ٤٥٢ ـ السلوك ٣٣٥ ـ المختصر ١٧٩.
(٤) السلوك ٣٣٤.
(٥) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٣٤.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين. أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن إلا جددناه. ولا بغى علينا باغٍ إلا دمرناه. فلو رأيت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وأحزابنا منكم ديار الأواخر والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك لك شيء لك الظنون. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فإن قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾ وكن على آخر سورة ص ﴿**ولتعلمن نبأه بعد حين**﴾ ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين: وإلى قول الحكماء «أن الباغي له مصرع وبغيك مصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام».

ونهار السبت ٢٢ صفر ٥ حزيران نزل الصليبيون إلى البر وضربوا لملكهم خيمة حمراء، وبدأت المناوشات مع المسلمين[١] استشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام والأمير صارم الدين أزبك الوزيري. ولما حلّ الليل انسحب قائد الجيش الأمير فخر الدين يوسف بمن معه من الجند، واجتاز الجسر إلى الجانب الشرقي حيث مدينة دمياط تاركاً البر الغربي للفرنج وسار إلى أشموم طناح[٢]. وكان سبب انسحاب الأمير فخر الدين اعتقاده بأن السلطان قد مات وكان يطمح بأن يخلفه، وقد أرسل ثلاث رسائل بواسطة الحمام الزاجل فلم يتلق جواباً، فأقدم على الانسحاب بعد مناوشات خفيفة مع الفرنج[٣].

وحلّت الكارثة على سكان دمياط عندما رأوا رحيل جيشهم، فهاموا على وجوههم في الليل وهجروا المدينة بعد أن أشعلوا النار فيها حتى خلت من أهلها[٤]. وفروا إلى أشموم مع الجيش حفاة عراة جياع حيارى ومعهم الأطفال

---

(١) السلوك ٣٣٥.

(٢) السلوك ٣٣٥.

(٣) السلوك ٣٣٥ ـ العبري ٤٥٣.

(٤) الحروب الصليبية ٣/٤٥٢ المختصر ١٧٩ ـ من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٦٠.

والنساء[1] غير أنهم غفلوا عن تدمير الجسر وتابعوا سيرهم إلى القاهرة. وتجردت المدينة من مقومات الدفاع.

وزحف الصليبيون نهار الأحد ٢٣ صفر/٦ حزيران إلى مدينة دمياط وعندما رأوا أبوابها مفتوحة دون حماية خشوا من أن يكون في الأمر مكيدة فتمهلوا في دخولها حتى أخبرهم الأقباط من سكانها بأن المسلمين قد هجروها[2] عندئذ دخلوها من على الجسر دون قتال وغنموا ما فيها من الأسلحة والآلات الحربية والأقوات والأمتعة[3] ثم حصنوها وشحنوها بالمقاتلين ودخلها الملك لويس حافياً حاسر الرأس. واقتدى به الاكليروس، وعين سفير البابا أحد الكهنة بعد أن رقاه إلى رتبة أعلى أسقفاً على المدينة ووزع الملك البيوت على أصحابه[4].

ذاع خبر سقوط المدينة بيد الصليبيين بهذه السهولة في القاهرة وسائر مدن مصر فتضايق السكان كثيراً وتملكهم اليأس خاصة مع اشتداد مرض السلطان وثار سكان دمشق بعد سقوط دمياط فهاجموا مدينة صيدا وحرروها من الصليبيين بعد قتال عنيف في ٢٥ ربيع الأول[5].

وتراجع الجيش المصري إلى أشموم طناح فاشتد غضب السلطان على الكنانيين وأمر بإعدامهم، فقالوا: «وما ذنبنا إذا كانت عساكره (أي السلطان) جميعهم وامراؤه هربوا وأحرقوا الزردخانه فأي شيء نحن نفعل» فشنقوا لأنهم انسحبوا دون قتال من المدينة حتى احتلها الصليبيون وكان عددهم أكثر من خمسين أميراً منهم نائب دمياط[6]. وقد أقدم السلطان

---

(١) السلوك ٣٣٥.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٥٢ ـ الذهبي ١٩٢.

(٣) السلوك ٣٣٦ ـ بدائع الزهور ٢٧٧ ـ شفاء القلوب ٣٧٩ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٦ ـ البداية والنهاية ١٧٧ ـ المختصر ١٧٩ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٠.

(٤) السلوك ص ٣٣٦ و ٣٣٧ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٠.

(٥) السلوك ٣٣٧.

(٦) السلوك ٣٣٦ ـ مرآة الجنان ١١٦ العدد ٦٠ ـ بدائع الزهور ٢٧٨ العدد ٥٤ البداية والنهاية ١٧٧ ـ الذهبي ١٩٢ ـ المختصر ١٧٩ ـ العبري ٤٥٣.

على ذلك بعد أن استفتى الفقهاء فأفتوا بقتلهم[١].

وتغير السلطان على الأمير فخر الدين يوسف وأنبه قائلاً: «أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج هذا وما قتل منكم إلا هذا الضعيف الشيخ نجم الدين»[٢] واشتدت حملة الاستنكار على الأمير فخر الدين وخاف كثير من الأمراء سطوة السلطان وهموا بقتله فنهاهم عن الأمر الأمير وأشار عليهم بالصبر لأن السلطان «على خطة» فإن مات كانت الراحة منه وإلا فهو بين أيديكم»[٣]. وأمر السلطان بالرحيل إلى المنصورة لكي يشرف على تنظيم الجيش ووصل إليها نهار الثلاثاء ٢٥ صفر/٨ حزيران ونزل بقصرها على النيل وانصرف الجيش إلى تجديد الأبنية وتحصين المدينة وإصلاح السور. ووصلت المراكب محملة بالرجال والعتاد وتوافد المتطوعون للجهاد وأقبلت القبائل العربية، بدأ الجيش بشن الغارات على الصليبيين يأسر ويقتل، وكانت بعض الفرق تصل إلى أسوار دمياط مما اضطر لويس إلى حفر الخنادق لحماية جيشه[٤]. وبدأت قوافل الأسرى تصل إلى القاهرة، ففي يوم الاثنين آخر ربيع الأول وصل إلى القاهرة ست وثلاثون أسيراً صليبياً كان العرب قد أسروهم، من بينهم فارسان وفي ٥ ربيع آخر وصل سبع وثلاثون وفي السابع منه اثنان وعشرون وفي السادس عشر خمس وأربعون منهم ثلاثة فرسان[٥]. وبقيت قوافل الأسرى تتوالى إلى القاهرة. ففي الثامن عشر من جمادي الأولى ورد خمسون أسيراً، وفي ١٣ رجب سبع وأربعون وأحد عشر فارساً وظفر المسلمون بمركب صليبي وأسروا بحارته قرب نستراوه[٦].

---

(١) السلوك ٣٣٦.

(٢) السلوك ٣٣٦.

(٣) مرآة الجنان ١١٧/٤ ـ السلوك ٣٣٦.

(٤) السلوك ٣٣٧ فيها قصة الجندي الذي أسر صليبياً ـ المختصر ١٧٩ ـ الحروب الصليبية ٤٥٥ جـ ٣.

(٥) السلوك ٣٣٨.

(٦) السلوك ٣٣٩ ـ من تاريخ سوريا ٢٦١.

وفاة السلطان الصالح نجم الدين

في هذا الظرف العصيب توفي السلطان الصالح ليلة الاثنين منتصف شعبان ٦٤٧/ ١٢٤٨م[١] وله من العمر أربع وأربعون سنة فتكون ولادته ٢٤ جمادي الآخرة ٦٠٣ هـ/ ٢[٢] وغسله أحد الأطباء الذين أشرفوا على علاجه. وحمل في تابوت إلى قلعة الروضة حيث دفن هناك[٣].

استدعت زوجته شجر الدر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والطواشي جمال الدين محسن وكان مقرباً من السلطان واعلمتهما بموت السلطان وطلبت منهما كتمان الأمر[٤] حرصاً على وحدة المسلمين وكي لا يستغل الصليبيون الخبر فيهاجموا المسلمين[٥]، وأرسلت رسولاً من قبلها إلى حصن كيفا ليخبر تورانشاه ابن السلطان بالأمر.

وإمعاناً في إخفاء موت السلطان ظلت المراسيم تصدر ممهورة بعلامة السلطان، وكان قد ترك قبل موته عشرة آلاف علامة[٦] ليستعان بها على كتمان الأمر إذا حدث له مكروه إذ كان يتوقع موته وكان يكتبها الخادم سهيل[٧]. والأطباء يدخلون غرفته كأنهم يشرفون على علاجه. وكذلك كان يقوم بعملية التمويه كبار الأمراء منهم اقطاي[٨]. ولم يجرؤ أحد على التفوه بموت السلطان[٩].

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٣ ـ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٦٠ ـ الذهبي ١٩٢ ـ تحفة الناظرين ١٧ بدائع الزهور ٢٧٨ ـ شفاء القلوب ٣٨٠ ـ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٨٦ ـ خطط الشام جـ ١ ص ١٠١.

(٢) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٨٦.

(٣) السلوك ٣٣٩ ـ بدائع الزهور ٢٧٨ ـ شفاء القلوب ٣٨٠ ـ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٨٦.

(٤) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٥ ـ المختصر ص ١٨٠ ـ البداية والنهاية ١٧٧ ـ ابن خلدون ص ٣٦٠.

(٥) السلوك ٣٣٩ ـ خطط الشام جـ ١ ص ١٠١.

(٦) بدائع الزهور ٢٧٨ ـ السلوك ٣٣٩ ـ شفاء القلوب ٣٨٠ ـ تحفة الناظرين ١٧٠.

(٧) المختصر ص ١٨٠ ـ شفاء القلوب ٣٨٠ ـ السلوك ٣٣٩.

(٨) بدائع الزهور ٢٧٩ ـ ابن العبري ٤٥٣.

(٩) السلوك ٣٤٤ ـ المختصر ١٨٠.

وقام الأمير فخر الدين يوسف بإدارة شؤون الدولة وأرسل المناشير إلى الولايات، والكتب إلى المعسكر وعليها علامة السلطان الصالح نجم الدين[1].

وسار من معسكر المنصورة أمير المماليك البحرية أقطاي إلى حصن كيفا لإحضار الملك المعظم تورانشاه، وكذلك بعث الأمير حسام الدين نائب السلطان في القاهرة موفداً من قبله[2].

ونهار الاثنين ٢٢ شعبان ٦٤٧هـ/ ١٢٤٨م أصدر الأمير حسام الدين أمراً إلى الخطباء بالدعاء يوم الجمعة للملك المعظم بعد الدعاء لوالده الملك الصالح، وإن ينقش اسمه على السكة[3].

وصل رسول الأمير حسام الدين الأتابك فخر الدين بن الشيخ[4] إلى حصن كيفا، واطلع الملك الجديد على الأمر وطلب منه الإسراع بالعودة إلى مصر لأن مصلحته ومصلحة المسلمين تقتضي بذلك وإذا تأخر فإن الأمير فخر الدين يوسف يدعو لنفسه. ثم وصل بعد ذلك رسل شجر الدر والأمير فخر الدين[5].

غادر الملك المعظم حصن كيفا ليلة السبت ١١ رمضان ٦٤٧هـ/ ١٢٤٨م يرافقه خمسون فارساً نصب له صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ كمائن لإلقاء القبض عليه وكذلك صاحب حلب ولكنه نجا منهم وقطع الصحراء[6].

في هذه الأثناء كان الصليبيون يستعدون لمتابعة تقدمهم فقد أثار حماسهم سهولة استيلائهم على دمياط. ولكنهم توقفوا لأن فيضان النيل أصبح قريباً، والملك لويس أراد الاستفادة من الحملة السابقة على دمياط

---

(١) السلوك ٣٤٤ ـ البداية والنهاية ١٧٧.
(٢) شفاء القلوب ٤٢٧ ـ ابن العبري ٤٥٣ ـ السلوك ٣٤٥ ـ المختصر ١٨٠ ـ ابن خلدون ٣٦٠.
(٣) السلوك ٣٤٥.
(٤) ابن خلدون ٣٦٠.
(٥) السلوك ٣٤٥ و ٣٤٦.
(٦) السلوك ٣٤٦ ـ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٦٥ ـ شفاء القلوب ٤٢٧ ـ أبو شامة ١٨٣.

٦١٨ م/١٢١٩ فرفض المسير حتى يهبط منسوب النيل وتكون الإمدادات قد وصلت إليه من فرنسا بقيادة أخيه الفونسو دوق بواتو[١].

واتخذ الصليبيون من دمياط عاصمة لهم طيلة صيف ١٢٤٩م/ ٦٤٧م وحولوا جامعها إلى كاتدرائية وعينوا أسقفاً لها. وتوزعت الطوائف الدينية العسكرية على إحيائها، فنال الجنويون والبيازنة سوقاً وشارعاً مكافأة لهم على خدماتهم ولقي المسيحيون من سكانها الأصليين من الأقباط اليعاقبة معاملة حسنة من لويس فرحبوا بحكمه[٢]. إلاّ أن عدم تقدم الجيش الصليبي ومكوثه طيلة الصيف متعرضاً للحرارة الشديدة في الدلتا أدى إلى تداعي الروح المعنوية لدى الجنود، وكذلك بدأت المؤن تنفذ وتفشى المرض في المعسكر[٣]. ودارت الخلافات بينهم خاصة مع كونت سالبوري التي أصلحها الملك[٤].

وفي ٢٤ تشرين الأول ١٢٤٩م/ رجب ٦٤٨هـ. وصل إلى دمياط شقيق الملك لويس كونت بواتو الفونسو مع إمدادات فرنسية[٥]. وهبطت مياه النيل في نهاية الشهر عندها عقد الملك مجلساً عسكرياً للتشاور في الأمر، اقترح بطرس كونت بريتاني يؤيده بارونات الصليبيين الشرقيين بالتوجه إلى الإسكندرية، فإذا استولوا عليها سيطروا على سواحل مصر المطلة على البحر المتوسط ويتأمن لهم من السفن ما يفكي لاجتياز فروع النيل ـ فيجبرون السلطان على طلب الصلح[٦]. ورفض هذا المشروع شقيق الملك روبير كونت أرتوا، وقرر الزحف نحو القاهرة جنوباً. أيد الملك شقيقه. وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩/ شعبان ٦٤٧ زحف الصليبيون جنوباً من دمياط إلى المنصورة بقوة تقدر بألفي جندي وتركوا في دمياط حامية قوية[٧] وازداد حماسهم عندما علموا بوفاة السلطان وتولي شجر الدر الحكم، إذ أن دولة تديرها

---

(١) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٥٣.

(٢) الحروب الصليبية ٤٥٣.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٥ ـ من تاريخ سوريا ص ٢٦٢.

(٤) من تاريخ سوريا ص ٢٦٢.

(٥) الحروب الصليبية ص ٤٥٥ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢.

(٦) الحروب الصليبية ٤٥٥ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢.

(٧) ابن العبري ٤٥٣ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢.

إمرأة مع رجل كهل معرضة للإنهيار لذلك قرروا الزحف نحو القاهرة[١].

والطريق من دمياط جنوباً فيها أقنية كبيرة وفروع للنيل، أكبرها البحر الصغير الذي يتفرع من النيل الرئيسي جنوب المنصورة ويسير إلى بحيرة المنزلة عبر أشموم طناح[٢] أبقى الأمير فخر الدين قواته خلف البحر الصغير وأرسل الفرسان ليتصدوا للعدو عند كل قناة. غير أن هذه القوة فشلت في وقف الزحف الصليبي، وتقدم لويس الى فارسكور نهار الخميس ٢٥ شعبان ٦٤٧هـ/ تشرين الثاني ١٢٤٩م تسانده السفن في بحر النيل[٣]. على أثر ذلك الزحف أرسل قادة الجيش الإسلامي كتاباً إلى القاهرة نهار الجمعة ٢٦ شعبان ٦٤٧هـ/ تشرين الثاني ١٢٤٩م فيه حض للناس على الجهاد «بسم الله الرحمن الرحيم انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون»[٤] وقرىء الكتاب على الناس من على منبر الأزهر وتسارع الناس للجهاد.

وقعت المعركة نهار الثلاثاء أول شهر رمضان ٧/٦٤٧ كانون الأول ١٢٤٩م في فارسكور قتل فيها عدد من الفريقين[٥] ولم يستطع الجيش المصري وقف الزحف الصليبي[٦] ونزل الصليبيون بشار مساح. ونهار الاثنين ٧ رمضان ٤ كانون الأول وصلوا إلى البرمون[٧]، فاضطرب الجيش المصري لدنو الصليبيين من مركزه الرئيس، وفي ٢٣ منه ١٠ كانون الأول نزلوا تجاه[٨] المنصورة ويفصلهم عن معسكر المسلمين في المنصورة بالبر الشرقي، وفي البر الغربي أبناء الملك الناصر داوود[٩] صاحب الكرك وعددهم أثنا عشر منهم

---

(١) ابن خلدون ص ٣٦٠ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢.
(٢) الحروب الصليبية ٤٥٧.
(٣) السلوك ص ٣٤٦ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢.
(٤) القرآن الكريم سورة آية ـ السلوك ٣٤٦.
(٥) من تاريخ سوريا ٢٦٢ ـ السلوك ٣٤٧.
(٦) من تاريخ سوريا ٢٦١ ـ المختصر ص ١٨٠ ـ الحروب الصليبية ٤٥٧.
(٧) السلوك ٣٤٧ ـ المختصر ص ١٨٠.
(٨) من تاريخ سوريا ٢٦١.
(٩) السلوك ٣٤٧.

الأمجد والمعظم والأوحد. وكذلك أخو الملك القاهر عبد الملك والمغيث عبد العزيز.

عسكر الصليبيون حيث وصلوا ونصبوا المجانيق ووقفت سفنهم للمساندة، وكذلك وقفت سفن المسلمين تجاه المنصورة ونشب القتال بين الفريقين[1].

وأصر الداوية على الهجوم وتوغلوا في هجومهم حتى انقطع الاتصال مع قيادتهم، واستقر الجيش الصليبي في البرمون ٢١ كانون الأول ١٢٣٩/ ٢٣ رمضان ٦٤٧هـ[2].

وقف الجيشان وجهاً لوجه مدة ستة أسابيع وقد احبط شارل أنجو هجمات الفرسان المسلمين[3] وأصدر الملك لويس أمراً بإقامة جسر من الصنوبر[4] على البحر الصغير وكلف المهندسين بذلك[5] وبتشييد أروقة لحماية العمال. غير أن المصريين قاوموا هذا العمل بعنف بإلقاء القذائف على منشآت الأعداء ولا سيما النار الإغريقية[6] مما أجبر الصليبيين على التوقف عن العمل[7] وأرسل الأمير فخر الدين فرقة باغتت الصليبيين من الخلف وحققت بعض النجاح[8]. وشنّ المصريون حرب عصابات ضد الأعداء، ففي يوم عيد الفطر أسروا قائداً كبيراً من الصليبيين وهو نسيب الملك وكانوا يلجأون إلى شتى الحيل لأسر الأعداء حتى أن مسلماً وضع على رأسه بطيخة وسبح في الماء، فاعتقد جندي صليبي أنها بطيخة حقيقية وحاول أخذها فما كان من الفدائي إلا أن أمسك به وقاده إلى المعسكر أسيراً[9]. وفي ٧ شوال

(١) السلوك ٣٤٧.
(٢) السلوك ٣٤٧ ـ الحروب الصليبية ٤٥٨.
(٣) الحروب الصليبية ٤٥٨.
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٥ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢.
(٥) من تاريخ سوريا ٢٦٢ ـ الحروب الصليبية ٤٦٠.
(٦) الحروب الصليبية ص ٤٥٨ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢ لم يشر إلى النار الإغريقية.
(٧) الحروب الصليبية ص ٤٥٨.
(٨) من تاريخ سوريا ص ٢٦٢.
(٩) السلوك ٣٤٨.

نهار الأربعاء أسر المسلمون شينياً فيه مئتا رجل. ونهار الخميس منتصف شوال دارت معركة مع الصليبيين قتل فيها منهم أربعون فارساً. ونهار الجمعة ١٦ منه وصل إلى القاهرة سبع وستون أسيراً بينهم ثلاثة من قادة الداوية. ونهار الخميس ٢٢ منه أحرقوا لهم مرمة في البحر[١]. واستمرت الأعمال العسكرية على حالها إلى كان يوم الثلاثاء الخامس في ذي القعدة ٦٤٧/هـ أوائل شباط ١٢٥٠م دخل إلى معسكر الصليبيين مسيحي قبطي من سلمون وأرشد الملك على مخاضة بحر أشمون حيث يستطيع العبور منها إلى معسكر المسلمين لقاء مبلغ خمسماية بيزنتة[٢].

وفجر الثامن من شباط ١٣ ذي القعدة شرع الصليبيون في عبور المخاضة وبقي دوق برجنديا لحماية المعسكر ورحل الملك لويس مع الجيش وعين على مقدمته أخاه روبرت وعلى قيادة الإنكليز سالسبوري وأصدر الملك أوامر مشددة بألا يهاجم روبرت المصريين إلا بإذن منه[٣] واستطاع الصليبيون عبور المخاضة ببطء فلم يشعر بهم المسلمون إلا وهم داخل المعسكر بينهم ورأى روبرت كونت أرتوا أن يبادر بالهجوم مغتنماً عنصر المفاجأة، فذكره الداوية بأوامر الملك ولكنه أصر على الهجوم فاضطروا للموافقة واشتركوا معه.

كان المصريون يعتقدون أنهم في مأمن ولم يساورهم شك في أن يتمكن الصليبيون من عبور النهر. وفجأة انقض الفرسان الصليبيون على معسكر المصريين ولقي كثير منهم مصرعهم وهم يحاولون حمل سلاحهم، ولاذ الباقون بالفرار إلى داخل المدينة[٤]. كان الأمير فخر الدين يوسف قائد الجيش في الحمام سمع الصراخ بأن الصليبيين قد اقتحموا المعسكر فخرج مذهولاً بلا

---

(١) السلوك ٣٤٨.

(٢) السلوك ٣٤٩ ـ أرشده بعض الخونة إلى المخاضات ـ من تاريخ سوريا ٢٦٢ بدوي أرتشى ـ العبري ٤٥٤.

(٣) الحروب الصليبية ٤٥٨.

(٤) السلوك ٣٤٩.

(٥) المختصر ص ١٨٠ ـ الحروب الصليبية ص ٤٥٩ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٣ ـ ابن خلدون ٣٦٠ يشير إلى هزيمة المصريين.

حذر ولا استعداد يأمر الجنود بحمل السلاح للقتال ومعه نفر قليل من مماليكه وحرسه، دافع دفاعاً مستميتاً ولكنه كان دون درع فطعنه فارس صليبي برمح في جنبه واعتورته سيوف الباقين حتى سقط شهيداً[1]. واستولى الصليبيون على جديلة وهي تل مرتفع على الشاطىء الجنوبي لبحر أشموم حيث كان المصريون قد أقاموا مجانيقهم وأبراجهم. وكان على رأس المهاجمين كونت أرتوا شقيق الملك[2].

وبهذه السهولة سيطر كونت أرتوا على معسكر المصريين. وتوسل إليه مقدم الداوية بأن يلتزم بتعاليم الملك وبتوقف عن التقدم حتى يكتمل عبور الجيش وكذلك طلب منه وليم سالسبوري الحذر[3].

معارك المنصورة

غير أن الكونت وقد أخذه الغرور عزم على أن يستولي على المنصورة ويحقق نصراً حاسماً على المصريين ووصم منتقديه بالجبن. تقدم مسرعاً قبل أن يصل إليه الجيش الذي يقوده شقيقه الملك لويس، عندئذ اضطر الإنكليز والداوية إلى السير معه[4]. ودخلوا المدينة يقتلون من يصادفونه في طريقهم.

بعد استشهاد قائد الجيش المصري الأمير فخر الدين يوسف، استعد المماليك الصالحية خارج المدينة للقتال بقيادة الأمراء بيبرس ولاجين وأقطاي[5] وفرقهم مجهزة بالسيوف والأطبار والنشاب، والعرب يحملون الرماح، والعوام بالمقاليع والحجارة ويعتمرون طاسات نحاسية[6].

أمر بيبرس رجاله بأن يدخلوا المدينة ويتمركزوا في أماكن محددة في تقاطع الطرق، وترك فرسان الصليبيين يتوغلون داخل المدينة من باب أمر

---

(١) السلوك ٣٤٩ ـ الذهبي ١٩٣ ـ ابن خلدون ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٦ ـ البداية والنهاية ١٧٨.

(٢) السلوك ٣٤٩ ـ الحروب الصليبية ٤٥٩.

(٣) الحروب الصليبية ٤٥٩.

(٤) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٦٠.

(٥) بدائع الزهور ٢٨٠.

(٦) بدائع الزهور ٢٨٠.

بفتحه ليخدعهم واندفع الصليبيون حتى بلغوا القلعة ووصل بعضهم إلى أبواب قصر السلطان[١]. ثم أمر بيبرس فرقته بالقتال فدارت معركة قاسية انقض فيها المماليك على الصليبيين[٢] من الكمائن التي أعدوها لهذا الفرض، وكان السكان يقذفونهم بالحجارة والآجر وما تصل إليه أيديهم[٣]. وتعطلت حركة الخيول فلم تستطع أن تستدير في الطرقات الضيقة، فسادت الفوضى صفوفهم، واعتورتهم سيوف المصريين، حتى أفنتهم، ومن نجا من السيوف لقي حتفه في النيل غرقاً وحلت الكارثة على الداوية، فقد بقي منهم على قيد الحياة خمسة فرسان من مئتين وتسعين فارساً والباقون قتلوا[٤]. أما كونت ارتوا فقد هرب إلى بيت مع حرسه فاقتحمه المصريون وأبادوهم[٥] وبلغ عدد القتلى ألفاً وخمسماية قتيل[٦].

كان من القتلى بالإضافة إلى كونت أرتوا أيرل سالسبوري ومعظم أفراد فرقته الإنكليز وكونتا كوسي وبريين. ومن الحرس كونت برتياني الذي أصيب برأسه ولكنه إستطاع الإفلات إلى معسكر الملك ليبلغه الأخبار[٧] الفاجعة وهو يتقيأ دماً. وأسر سبعة من أعيانهم[٨] منهم رئيس فرسان القديس يوحنا وقلعت عين رئيس الهيكليين[٩]. كان الجيش الصليبي الذي يقوده الملك قد أوشك على اجتياز البحر الصغير[١٠] عندما علم بالكارثة، بادر إلى إقامة خط دفاع أمامي لمواجهة هجوم المماليك، وأمر بإقامة جسر على البحر الصغير والرماة بأن يتخذوا أماكنهم على ضفة النهر لحماية الجيش[١١].

---

(١) مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٦.
(٢) بدائع ص ٢٨٠ ـ المختصر ١٨٠ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٣.
(٣) ابن العبري ص ٤٥٣.
(٤) الحروب الصليبية ٤٦٠ ـ ابن العبري ٤٥٤.
(٥) الحروب الصليبية ٤٦٠.
(٦) بدائع الزهور ٢٨٠ ـ السلوك ٣٥٠ ـ ابن العبري ٤٥٤ يذكر أنهم هزموا أفحش هزيمة. وفي بدائع الزهور عدد القتلى ١٢٠٠٠.
(٧) الحروب الصليبية ٤٦٠ ـ السلوك ٣٥٠ لم يذكر الأسماء.
(٨) بدائع الزهور ٢٨٠.
(٩) من تاريخ سوريا ٣٦٣.
(١٠) من تاريخ سوريا ٣٦٣.
(١١) الحروب الصليبية ٤٦٠.

وعلم الملك بمقتل شقيقه فاغرورقت عيناه بالدموع[1] فعقد مجلساً حربياً مع أعوانه وبعد أن أجهش بالبكاء عرض عليهم خطة التراجع وإلا وقعوا في أيدي الأعداء فيكون مصيرهم كإخوانهم، أو الابتهال إلى الله ليغفر لهم آثامهم ويبادروا للأخذ بثأر أخيه وقتلاهم[2] وفي اليوم التالي عقد الأمير فارس الدين أقطاي مجلساً تقرر فيه مهاجمة الصليبيين نهار الجمعة ١٥ محرم/ ١١ شباط فأصدر أوامره إلى أربعة آلاف فارس بتطويق الصليبيين. بدأ الهجوم منتصف النهار حيث دارت معركة تعتبر أعنف معركة في تاريخ الشرق مع الصليبيين إذ خرج المماليك من المدينة وانقضوا على أعدائهم يشنون عليهم الهجوم مستخدمين النار الإغريقية[3]، واضطر الملك إلى التراجع وكاد يهوي في البحر الصغير[4] ولم يستطع جنود شارل أنجو الصمود وكان في الجناح الأيسر وقتل جواده فاستنجد بأخيه الملك[5] وكان بارونات سوريا وقبرص في الجانب الأيسر من القلب. وتزعزعت بقايا الفرنسيين في الجانب الأيمن فيه، ولقي مقدم الداوية حتفه وتم تطويق الفونسو كونت بواتو وكاد يقع أسيراً فأنقذه الطباخون والنساء إذ دخل بين صفوفهم على أنه واحد منهم[6]. وأباد المصريون فرسان الفرنج تقريباً[7]. ثم عادوا إلى المدينة.

وبقي الملك معسكراً أمام المنصورة يتحين الفرص للتفاوض مع المصريين بظروف تتيح له الحصول على القدس، ولكن الذي حصل خيب آماله، إذ وصل إلى مصر الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان الصالح المتوفي في ٢٨ شباط ١٢٥٠/١٨ ذي القعدة ٦٤٧هـ ونزل في قصر أبيه في الصالحية في ١٦ ذي القعدة ٦٤٧/آذار ١٢٥٠[8].

---

(١) الحروب الصليبية ٤٦١.

(٢) من تاريخ سوريا ٣٦٣.

(٣) الحروب الصليبية ص ٤٦٢ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٥.

(٤) الحروب الصليبية ٤٦١.

(٥) من تاريخ سوريا ٤٦٥.

(٦) من تاريخ سوريا ٤٦٥. الحروب الصليبية٢٦٢.

(٧) الحروب الصليبية ص ٢٦٢.

(٨) السلوك ٣٥٢ ـ مرآة الجنان ص ١١٦ ـ الذهبي ١٩٢ ـ ابن خلدون ٣٦٠ ـ شفاء القلوب ٤٣٠.

وأعلن بعد ذلك عن وفاة السلطان الصالح. ثم رحل السلطان المعظم إلى تلبانة وهي قرية من قرى مديرية الشرقية، ومنها توجه إلى المنصورة حيث الجيش هناك ونزل بقصر والده استقبله الأمراء المماليك نهار الخميس ١٢ ذي القعدة ٦٤٧هـ/ شباط ١٢٥٠ م.

بدأ الملك الجديد عهده بالتهجم على القائد الراحل فخر الدين يوسف ويقول: «أطلق السكر والكتان وأنفق المال وأطلق المحابيس ايش ترك لي». وعامل مماليك والده بإزدراء[١] بوصول الملك تورانشاه إلى مصر ارتفعت معنويات الجيش المصري[٢] إذ أصبح للبلاد سلطاناً شرعياً متوجاً، واستؤنفت العمليات العسكرية ضد الصليبيين الذين كانت تردهم المؤن من دمياط عبر نهر النيل، فأمر السلطان بصناعة سفن خفيفة حملها على ظهر الجمال إلى القنوات السفلى وشحنها بالمقاتلين وكان فيضان النيل، فأخذت تعترض سفن الصليبيين التي تنقل المؤن إلى الملك لويس من دمياط[٣].

فقد استولى الأسطول المصري على اثنتين وخمسين سفينة وقتل وأسر حوالي ألف صليبي وغنم المسلمون ما فيها من المؤن والسلاح فانقطعت الإمدادات من دمياط ونقل الأسرى على ظهور الجمال[٤].

وتعرض الصليبيون للمجاعة وتفشت الأمراض في صفوفهم منها الإسهال والحمى من نتانة الجثث التي التهمتها الأسماك واضطروا لأكلها حتى مرض الملك نفسه ومات منهم عدد كبير وانقطعوا عن العالم الخارجي[٥].

وحدث في ذي الحجة/آذار أن استطاع الصليبيون أخذ سبع سفن للمصريين في البحر الصغير ولكن نجا من بها من المسلمين.

وفي يوم الوقوف على عرفة وصلت سفن الصليبيين التي تحمل المؤن

---

(١) السلوك ٣٥٣.

(٢) البداية والنهاية ١٧٧.

(٣) السلوك ص ٣٥٣ ـ الحروب الصليبية ص ٤٦٣ تحفة الناظرين ١٧٠.

(٤) العيني م ٢ ص ١٧ ـ المنقر ١٨٠ العدد ٣٢ مركب ـ ابن خلدون ٣٦١ يشير فقط إلى هزيمة أسطول الصليبيين.

(٥) السلوك ٣٥٤ ـ مرآة الجنان ١١٧ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٦.

من دمياط فتصدى لها الأسطول المصري عند مسجد النصر وأسر منها اثنتين وثلاثين سفينة فازدادت الضائقة عليهم[١].

أدرك الملك لويس أن حملته على مصر فشلت ولا بد له من إنقاذ الجيش من الفناء فقرر التقهقر إلى دمياط[٢] وشرع في مراسلة السلطان يطلب منه إيقاف القتال. واجتمع رسل لويس بالأمير زين الدين أمير جاندار وبقاضي القضاة بدر الدين السنجاري وطلبوا استبدال القدس وبعض الساحل بدمياط وأن يقدم الملك لويس أخويه رهينتين لتحقيق ذلك، رفض السلطان هذا العرض[٣] وطلب أن يكون الملك لويس هو الرهينة. قبل الملك ولكن قادة جيشه رفضوا هذا الطلب وفضلوا الموت على الاستسلام. عندئذ قرر التراجع إلى دمياط[٤] فعقد مجلساً لوضع خطة التراجع وطلب منه المجتمعون التسلل بحرسه إلى المدينة غير أنه رفض بكبرياء التخلي عن رجاله، وقرر نقل المرضى وسفير البابا والنساء والأطفال بالسفن عبر النيل وبقية الجيش عبر الطريق الذي سلكه في قدومه[٥] ونهار الجمعة ٢٧ ذي الحجة ٦٤٧/٥ نيسان ١٢٥٠ أحرق الصليبيون مراكبهم التي لم يحتاجوها[٦]. وبدأت عملية التقهقر عن المنصورة ليل الأربعاء ٣ محرم ٦٤٨/١١ نيسان ١٢٥٠ إلى دمياط[٧] ولاحظ المصريون عملية التحرك فهبوا لمطاردتهم، وكان الصليبيون قد عبروا البحر الصغير ونسوا تدمير الجسر العائم الذي صنعوه من الصنوبر للاضطراب الذي حل في صفوفهم[٨]. وانقض المسلمون عبر ذلك الجسر وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً[٩]. وفي الصباح كانوا محاصرين من جميع

---

(١) السلوك ٣٥٤ ـ الحروب الصليبية ٤٦٣.
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٤ ـ المختصر ١٨١ ـ الحروب الصليبية ٤٦٤.
(٣) السلوك ٣٥٤ ـ الحروب الصليبية ٤٦٤.
(٤) الحروب الصليبية ٤٦٤ ـ من تاريخ سوريا ص ٢٦٦ جـ ٦.
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٥ ـ من تاريخ سوريا ٢٦٦.
(٦) السلوك ٣٥٤.
(٧) العيني ١٨.
(٨) مرآة ١١٧/٤ ـ نجوم ٣٦٤/٣ الذهبي ١٩٥.
(٩) نجوم ٣٦٥/٦ أبو شامة ١٨٣ عدد القتلى ١٥٠٠ فارس.

الجهات، ودارت المعارك في فارسكور واشتد تضييق المسلمين عليهم[١]. ولم يستطع الجنود المرضى المقاومة واضحت نهاية الجيش الصليبي قاب قوسين أو أدنى.

وقام جيفري سارجينس الذي قاد الحرس الملكي بنقل الملك لويس إلى كوخ بقرية منية العبد الله إلى الشمال من شرمساح[٢]. تملكه امرأة فرنسية[٣] وسيطر على الوضع العسكري قادة الصليبيين الشرقيين، فأرسلوا فيليب مونتفورت للتفاوض مع المصريين، وكان طلبه الجلاء عن دمياط مقابل الموافقة على انسحاب الجيش[٤] رفض المصريون العرض، عندئذ اضطر الجيش الفرنجي إلى الاستسلام بعد أن يلغ عدد قتلاه حوالي ٣٠ ألف والأسرى[٥] حوالي مئة ألف والغرقى ٧ آلاف واستولى المسلمون على السفن التي كانت تحمل المرضى إلى دمياط.

وغنم المسلمون جميع امتعة الجيش المستسلم وسلاحه ومؤنه[٦] واستسلم الملك لويس مع مرافقيه واحد إخوته[٧] وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن واعتقلهم ونقلهم في حراقة إلى المنصورة[٨] وكان باستطاعته الهرب لكنه رفض ذلك وبقي يشرف على تراجع جيشه حتى وقع في الأسر[٩]. وكبله أسروه بالحديد وسجن في دار القاضي فخر الدين بن لقمان[١٠] كاتب الأنشاء ووكل بحراسته إلى صبيح المعظمي الذي كان يجلده

---

(١) السلوك ٣٥٥ ـ مرآة ١١٧/٤ المختصر ١٨١.

(٢) السلوك ٣٥٦ ـ بدائع ٢٨١ ـ ٦/٣٦٥ ـ صليبية ة٤٦٥/٣.

(٣) من تاريخ سوريا ٢٦٧.

(٤) السلوك ٦/٣٦٥ ـ صليبية ٤٦٥.

(٥) البداية ١٣/١٧٧ ـ السلوك ٣٥٥ ـ مرآة الجنان القتلى ١٧ آلاف ٤/١١٧ ـ العيني ١٨ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٦٧ البداية والنهاية ١٧٧ ـ تحفة الناظرين ١٧٠ ـ الأسرى ٢٠ ألف.

(٦) السلوك ٣٥٦ ـ بدائع الزهور ٢٨١ ـ مرآة ٤/١١٧ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٦٥.

(٧) البداية والنهاية ١٣/١٧٨ ـ أبو شامة جـ ١٨٤.

(٨) العيني ١٨ ـ العبري ٤٥٤ النجوم الزاهرة ٦/٣٦٥.

(٩) النجوم الزاهرة ٦/٣٦٥.

(١٠) النجوم الزاهرة ٦/٣٦٦ ـ سلوك ٣٥٦ ـ العيني ١٩ دارخامة ـ بدائع ٢٨١.

كل يوم ٥٠٠ جلده[١] واعتقل معه أخواه[٢]. أما كبار البارونات فوضعوا في سجن كبير وأخذ آسروهم يهددونهم بالموت في كل لحظة[٣]. وأرسل المعظم والي القاهرة الأمير شهاب الدين بن موسى ليزف البشرى إلى سكانها وهو يرتدي ثياب الملك الأسير[٤].

ارتبك المصريون بكثرة الأسرى فكان الفارس يأتي وآسره يسوقه ذليلاً[٥]. وإذ تبين لهم أنهم لم يستطيعوا تأمين الحراسة لهم قرروا قتلهم ما عدا الحرفيين منهم. وأصدر السلطان أمراً إلى سيف الدين يوسف بن الطودي أحد مرافقيه من الشرق بقتل الأسرى العاجزين عن مواصلة السير[٦]. فكان سيف الدين يقتل كل يوم ما بين ثلاثماية وأربعماية ويرمي بجثثهم إلى البحر حتى أفناهم عن آخرهم[٧] وطلب المصريون في الملك الأسير دفع مبلغ مليون بيزنتة لقاء إطلاق سراحه[٨] كان المبلغ كبيراً يقابله العدد الكبير من الأسرى.

بعد أن تم توقيع الاتفاق على شروط الصلح نقل الملك وكبار معاونيه إلى فارسكور حيث استقر السلطان. وبموجب الاتفاق يسلم لويس المدينة إلى المصريين في صفر ٦٤٨ هـ/ ٣٠ نيسان ١٢٥٠ م[٩] والواقع أنه كان للملكة زوجة لويس الفضل في توقيع هذا الاتفاق. فعندما رحل زوجها إلى المنصورة تركها في دمياط كانت على وشك الوضع. وبعد ثلاثة أيام من استسلام الجيش وضعت مولوداً ذكراً اسمته يوحنا الحزين Tristan وترامى إلى مسامعها في اليوم نفسه أن البحارة الإيطاليين استعدوا لمغادرة دمياط فرجتهم البقاء فيها لأنهم إذا تخلوا عنها لم يعد لديهم ما

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٣٦٦.
(٢) بدائع ٢٨١ ـ العيني ١٨.
(٣) صليبية ٤٦٦.
(٤) بدائع الزهور ٢٨١.
(٥) نجوم ٦/٣٦٦.
(٦) الحروب الصليبية ٤٦٦ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٦.
(٧) النجوم الزاهرة ٣٦٦ ـ السلوك ٣٥٦.
(٨) الحروب الصليبية ٤٦٦.
(٩) الحروب الصليبية ٤٦٧.

يعرضونه لقاء إطلاق سراح الملك. واقترحت شراء المؤونة من المدينة وتوزيعها بإشرافها. عندها وافق الإيطاليون البقاء وقد كلفها ذلك حوالي ٣٦٠ ألف. وعندما برئت أصر رجالها على رحيلها إلى عكا بحراً[١]. وتوجه البطريرك روبرت بعد أن حصل على الأمان إلى فارسكور للاجتماع بالسلطان من أجل الفدية. ولما وصل إلى المكان المقصود علم بمصرع السلطان فتعرضت المفاوضات للتأجيل حتى تنجلي الأمور[٢]. ورحل السلطان المعظم من المنصورة إلى فارسكور حيث ضرب الدهليز السلطاني وبنى فيه برجاً خشبياً وانكب على لهوه[٣]. وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائبه في دمشق كتاباً بخط يده نصه[٤]:

الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن. وما النصر إلا من عند الله ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله. وأما بنعمة ربك فحدث وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. نبشر المجلس السامي الجمالي بل نبشر المسلمين كافة بما من الله على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا لا تيأسوا من رحمة الله. ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة تمم الله على الإسلام بركتها فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله فجاؤوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين. وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل وجل بهم الخزي والويل. أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ٣٠ ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج. وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ فرنسيس إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه. وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلال عظمته».

وأرسل مع الكتاب معطف الملك الأسير، فارتداه الأمير جمال الدين بن

---

(١) الحروب الصليبية ٤٦٨.

(٢) الحروب الصليبية ٤٦٨.

(٣) السلوك ٣٥٦ ـ المختصر ١٨١.

(٤) السلوك ٣٥٧ ـ العيني ٢٠ و ٢١ ـ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٧.

يغمور وهو أشكرلاط أحمر بفرو سنجاب فيه بكلة ذهب[1].

ولما ارتداه ابن يغمور وشاهده عليه الشيخ نجم الدين بن إسرائيل أنشد قائلاً[2]:

إن غفارة الفرنسيس التي جاءت صباء لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لوناً ولكن صبغتها سيوفنا بالدماء

ثم أنشد مخاطباً الأمير:

يا واحد العصر الذي لم يزل يحوز في نيل المعالي المدا
لا زلت في غرٍ وفي رفعةٍ تلبس أسلاب الملوك العدا

ثم تلاها بالثالثة:

أسيد أملاك الزمان بأسرهم تنجزت من نصر الآله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدا ويلبس أسلاب الملوك عبيده[3]

---

(١) أشكرلاط نوع من القماش الإيرلندي: العيني ٢١ ـ البداية والنهاية ١٧٨ ـ أبو شامة ١٨٤.
(٢) السلوك ٣٥٨ ـ العيني ٢٢.
(٣) العيني ٢٢ ـ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٨ ـ أبو شامة ١٨٤.

مقتل المعظم تورانشاه

كان لمعركة المنصورة نتائج بعيدة المدى بالنسبة للمصريين، إذ بعد أن انتصروا على الصليبيين بدأوا بتآمرون على بعضهم، وقد أدت هذه المؤامرات إلى زوال دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك.

وذلك أن المعظم تورانشاه بدأ بإبعاد رجال الدولة واعتقالهم، فأبعد الملك المغيث فتح الدين ابن الملك العادل إلى الشوبك وأمر باعتقاله فيها. وأخرج الملك السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان إلى دمشق حيث قبض عليه ابن يغمور. ويوم الجمعة ٥ محرم ٦٤٨/ نيسان ١٢٥٨م أرسل إلى الأمير حسام الدين بن أبي علي يأمره بالقدوم عليه من القاهرة وعين مكانه الأمير جمال الدين أقوش النجيبي[١].

وكان يكره مماليك والده البحرية، فهو سليل الأسرة الأيوبية الحاكمة ـ وقد ارتاب بأمرهم فأبعدهم[٢]. وقرب مماليكه الشرقيين الذين اصطحبهم من العراق وولاهم الوظائف العليا في الدولة، «وقدم الإرذال»[٣]، فجعل الطواشي مسروراً استاداراً له، وعين صبيحاً العبد الحبشي أمير جاندار وأنعم عليه[٤]، وأساء إلى مماليك والده وتوعدهم فكان إذا شرب ليلاً أضاء الشموع ويقطع رؤوسها بالسيف قائلاً: «هكذا سأفعل بالبحرية، . ويسمي كل واحد باسمه» واحتجب عن الناس، وانهمك على الشراب[٥].

---

(١) السلوك ٣٥٨ ـ العيني ٢٣.

(٢) بدائع الزهور ٢٨٣ ـ السلوك ٣٥٨ ـ خطط الشام جـ ١ ص ١٠١ ـ العيني ٢٤ ـ المختصر ١٨١.

(٣) السلوك ٣٥٩ ـ شفاء القلوب ٤٢٨ ـ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٦١.

(٤) السلوك ٣٥٩.

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٠ ـ شفاء القلوب ٤٢٧ ـ العيني ٢٤ ـ السلوك ٣٥٩.

وصلت أقواله إلى المماليك البحرية فنفروا منه وحقدوا عليه واضمروا له السوء[1]. وكان قد وعد الأمير أقطاي بولاية الإسكندرية عندما قدم عليه في حصن كيفا، ولم يف بالوعد[2] وأراد التخلص منه، وذلك بإرساله إلى العراق ليزف بشرى النصر على الصليبيين إلى بدر الدين لؤلؤ بنية التخلص منه[3]. وعلم أقطاي بالأمر فتنكر له وأضمر له الشر[4].

ولم يكتف السلطان بذلك فتغير على زوجة والده شجر الدر صاحبة الفضل عليه في الوصول إلى الحكم، فهي التي استدعته من العراق بعد وفاة والده، وأخذ يطالبها بالأموال[5]. فهربت من المنصورة إلى القاهرة واستجارت بمماليك زوجها الصالح أيوب[6]، ومنتهم بالعطاء ألف دينار للأمير ومئتين للجندي وكانوا يخلصون لها[7].

هذه الأمور جعلت أمراء المماليك يحقدون عليه، وقرروا التخلص منه قبل أن يبطش بهم[8]. وقام بتنفيذ المهمة أربعة من كبار أمرائهم منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البند قداري. وصباح الاثنين ١٦ محرم ٦٤٨هـ/ ٢ أيار ١٢٥٠م بعد مد السماط قعد السلطان على عادته لتناول الطعام تقدم منه الأمير بيبرس وضربه بالسيف فتلقى الضربة بيده فبانت أصابعه ولاذ بالبرج الخشبي الذي بناه بفارسكور[9] وهو يصيح من جرحني؟ قالوا الحشيشة! فقال لا والله إلا البحرية والله لا أبقيت منهم بقية!! واستدعى المزين ليداوي يده[10]. فقال البحرية لبعضهم تمموه وإلاّ أبادكم[11].. وهجموا عليه في

---

(١) بدائع الزهور ٢٨٤ ـ السلوك ٣٥٩.

(٢) شفاء القلوب ٤٢٨ ـ العيني ٢٤.

(٣)(٤) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ ـ شفاء القلوب ٤٢٨.

(٥) العيني ٢٥ ـ النجوم الزاهرة جـ ٦ ـ ٣٧١ ـ شفاء القلوب ٤٢٨.

(٦) شفاء القلوب ٤٢٨ ـ السلوك ٣٥٨ يشير إلى تأييدهم لها.

(٧) بدائع الزهور ٢٨٤.

(٨) السلوك ٣٥٩ ـ ابن خلدون ٣٦١.

(٩) البداية والنهاية ١٧٨ ـ شفاء القلوب ٤٢٨ ـ المختصر ١٨١ ـ ابن العبري ٤٥٥ ـ السلوك ٣٥٨ ـ العيني ٢٤ اليوم ٢٦ محرم ـ النجوم الزاهرة اليوم ٢٧ محرم جـ ٦ ـ ٣٧١.

(١٠) السلوك ٣٥٩ ـ العيني ٢٥ ـ النجوم جـ ٦ ص ٣٧١.

(١١) السلوك ٣٦٠.

البرج وهم يصيحون: «الحية لا ينبغي إلا قتلها» ودخلوا عليه بالسيوف ففر إلى أعلى البرج وأغلق الباب فأضرموا النار فيه[1]. فاضطر إلى القاء نفسه من البرج، واستجار بأقطاي وتعلق بأذياله فلم يجره[2].

عندئذ رمى بنفسه في النيل[3]، وهو يصرخ: خذوا ملككم ودعوني أعود إلى حصن كيفا. يا مسلمين ما فيكم من يصطنعني ويجرني؟![4] كل هذا والجيش واجم والنشاب ينهال على السلطان[5].

واستغاث برسول الخليفة العباسي أبي عز الدين الذي كان حاضراً يشاهد هذه المأساة قائلاً: «يا أبا عز الدين أدركني». فعارض في قتل السلطان، فاعتقله المماليك وهددوه بالقتل إذا تدخل بالأمر[6]. وتبع أقطاي السلطان في البحر وقتله[7].

بقيت جثة المعظم تورانشاه ثلاثة أيام على شاطىء النيل لم يجرؤ أحد على دفنها[8] حتى شفع رسول الخليفة بدفنها.

ودفن السلطان في المكان الذي قتل فيه وكانت مدة حكمه ٧١ يوماً[9]. وبموته انتهت دولة الأيوبيين عملياً نهار ١٦ محرم/ ٦٤٨هـ/ ٢ أيار ١٢٥٠م بعد أن استمرت إحدى وثمانين سنة حكمة خلالها ثمانية ملوك[10].

---

(١) بدائع الزهور جـ ٦ ـ ص ٢٨٤ ـ شفاء القلوب ٤٢٨ ـ المختصر ١٨١ ـ أبو شامة ١٨٥ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٩ ـ السلوك ٣٦٠ ـ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ ـ البداية ١٧٨.

(٢) السلوك ٣٦٠ ـ العيني ٢٥ ـ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١.

(٣) الذهبي ٢٠٠ ـ السلوك ٣٦٠ ـ مرآة الجنان ٤/١١٩ ـ ابن العبري ٤٥٥ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٧١.

(٤) بدائع الزهور ٢٨٤ ـ شفاء القلوب ٤٢٨ ـ العيني ٢٥ ـ السلوك ٣٦٠ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٧١.

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ ـ السلوك ٣٦٠ ـ العيني ٢٥.

(٦) شفاء القلوب ٤٢٩ ـ البداية والنهاية ص ١٧٨ ـ أبو شامة ١٨٥.

(٧) مفرج الكروب ص ٣٧١ ـ المختصر ـ ابن العبري ٤٥٥ ـ بدائع الزهور ٢٨٨ ـ ابن خلدون ٣٦١ مرآة الجنان ٤/١١٨ ـ السلوك ٣٦٠ ـ العيني ٢٥ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٧٢ ـ الذهبي ٢٠٠.

(٨) مرآة الجنان ٤/١١٩ ـ السلوك ٣٦٠ ـ العيني ٢٥ ـ النجوم ٦/٣٧٢ ـ أبو شامة ١٨٥.

(٩) السلوك ٣٦٠ ـ مرآة الجنان ٤/١١٩ يشير فقط إلى الدفن ـ العيني ٢٥.

(١٠) السلوك ٣٦٠ ـ المختصر ١٨١.

شجر الدر

بعد مقتل الملك المعظم تورانشاه قرر أمراء المماليك وأعيان الدولة وأهل المشورة تتويج شجر الدر أرملة سيدهم الصالح نجم الدين أيوب ملكة عليهم[١] كدليل على احترامهم الأسرة الأيوبية والإخلاص لها والظهور أمام الرعية بعدم التمرد على الأسرة الحاكمة، وأن يكون أيبك التركماني مدبراً وقائداً للجيش[٢].

وبويعت بالسلطنة نهار الخميس ٢٠ صفر ٦٤٨/ أيار ١٢٥٠ باعتبارها أم ولد خليل شجرشاه ابن الصالح أيوب[٣]. وحضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز وبايعها مكرهاً[٤]. وخطب لها على منابر مصر ونقش اسمها على السكة:

«المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل أمير المؤمنين»[٥] والدعاء: «اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدين والدنيا أم خليل المستعصمية صاحبة الصالح أيوب»[٦].

أمسكت شجر الدر بحزم زمام الأمور فكانت قوية البأس ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة سكرانة من خمرة التيه والعجب وهي أول امرأة تربعت على عرش مملكة إسلامية[٧].

باشرت حكمها بتصفية الموقف مع الصليبيين، فكلفت الأمير حسام الدين بن أبي علي لإنهاء المفاوضات التي بدأت أيام تورانشاه القتيل[٨]. وتوصل الأمير إلى عقد اتفاق مع لويس التاسع بأن يجلو الصليبيون عن دمياط

---

(١) السلوك ٣٦٢ ـ شفاء القلوب ٤٢٩ المختصر ١٨٢.

(٢) بدائع الزهور ٢٨٥ ـ العيني ٢٩ ـ السلوك ٣٦٢ ابن خلدون ٣٦١.

(٣) شفاء القلوب ٤٥٠.

(٤) بدائع الزهور ٢٨٥.

(٥) السلوك ٣٦٢ ـ العيني ٢٩ ـ البداية والنهاية ١٧٩ المختصر ١٥ ـ تحفة الناظرين ١٧١.

(٦) السلوك ٣٦٢ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٧٤. المختصر ١٨٢.

(٧) النجوم الزاهرة ٦/٣٧٨ السلوك.

(٨) السلوك ٣٦٢ ـ مرآة الجنان ٤/١١٨ ـ العيني ٢٩ ـ تحفة الناظرين ١٧٢.

ويطلق سراح الملك لقاء مبلغ من المال قدره ٤٠٠ ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله والباقي بعد وصوله إلى عكا[١]. أما سائر الأسرى فيطلق سراحهم بعد دفع الفدية. ووجد لويس أن المال المتوفر لديه هو ١٧٠ ألف دينار، فاحتفظ المصريون بشقيق الملك كونت بواتو حتى تسديد بقية المبلغ. وكان الداوية قد خبأوا أموالاً في أكبر سفينة لديهم، فاضطروا بتأثير الترهيب إلى دفع المبلغ المطلوب. ولما تسلم المصريون كامل الفدية المقررة أطلقوا سراح الكونت الأسير مساء ذلك اليوم[٢].

وأرسل لويس إلى الصليبيين يأمرهم بتسليم دمياط[٣] فرفضوا الأمر وصل البطريرك موفداً من قبل الملك لويس وكان قد حصل على أمان من الملك القتيل تورانشاه.

لم تعترف الحكومة الجديدة بذلك الأمان، وعاملت الرسول كأسير، وذهب جماعة من المتآمرين على تورانشاه إلى لويس وسيوفهم تقطر دماً وطالبوه بالمال لأنهم قتلوا عزيمه، وجماعة أخرى هددت الأسرى بالقتل[٤] ويوم الجمعة ٣ صفر ٦٤٨/٦ أيار ١٢٥٠م[٥] توجه جيوفري سارجينس إلى دمياط وسلمها إلى الجيش المصري وانتقل إليها الملك لويس وبذلك تحررت دمياط من الاحتلال الصليبي بعد فترة احتلال دامت ١١ شهراً و ٩ أيام.

وقام الجيش المصري بأعمال سلب ونهب في معسكر الصليبيين[٦]، مما حمل لويس على الاحتجاج إلى الأمير أقطاي بإرساله الراهب راؤول عما ارتكبه المسلمون من أعمال فكان جواب أقطاي: أيها الأخ راؤول قل للملك أنني لا يمكنني إصلاح ما فسد وإن قلبي لمفعم بالأسى، وحذره بالنيابة عن

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٣١٩ ـ مرآة الجنان ٤/١١٨ ويذكر المبلغ ٥٠٠ ألف ـ السلوك ٣/٣٦٣.
(٢) العيني ٢٩.
(٣) الحروب الصليبية ٤٧٠.
(٤) السلوك ٣٦٣ ـ العيني ٢٩ ـ المختصر ص ١٨٢.
(٥) مرآة الجنان ٤/١١٨.
(٦) مرآة ٤/١١٨ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٦٨ ـ ويذكر صاحب مرآة الجنان أن الذي عرض حسام الدين.

نفسي بالأيبدي أي تذمر عما يجيش في نفسه ما دام في أيدينا وإلا كان مصيره القتل؟

وكان أقطاي يعارض في إطلاق سراح الملك لويس لإطلاعه على عورات المسلمين ومركزه في النصرانية ولأن دمياط عادت فعلاً إلى أيدي المسلمين[1] وأفرج عن لويس مع بقية الأسرى وكان عددهم ١٢١١٠ أسرى، وأبحروا إلى عكا السبت ٣ صفر/ ٧ أيار عصراً[2]، فبلغها بعد ستة أيام بعد أن تعرض لمضايقة الغلمان والبحارة والمتطوعين[3].

وفي ذلك قال الصاحب جمال الدين بن مطروح[4]

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد عيسى المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها	تحسب أن الزمريا طبل ريح
فساقك الحين إلى ادهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
وقل لهم أن ازمعوا عودةً	لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

وهكذا انتهت الحملة الصليبية السابعة بهذا الفشل الذريع، فقد دمرت الحملة على دمياط الجيش الصليبي وكادت تحرم الشرق من جميع رجاله.

لويس في عكا

بعد وصول لويس إلى عكا تشاور مع قادة الصليبيين بشأن مستقبلهم في الشرق، فأخبرهم أنه يريد البقاء معهم حتى يتم إطلاق سراح جميع

---

(١) السلوك ٣٦٣ العيني ٣٠ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٦٩.
(٢) ابن العبري ٤٤٥ ـ الحروب الصليبية ٤٧٢.
(٣) النجوم الزاهرة ٦/٣٦٩ المختصر ص ١٨٢.
(٤) السلوك ٣٦٤ ـ العيني ٣٠ ـ النجوم الزاهرة ٦/٣٧٠.

الأسرى[1]. غير أن إخوته وكونت فلا ندر نصحوه بالعودة إلى فرنسا. ولكنه أصر على البقاء في الشرق وأذاع قراره في ٣ تموز ١٢٥٠م/ربيع الأول ٦٤٨هـ. وترك الخيار لأخوته وغيرهم ممن يريدون الرحيل عن الشرق فليبادر إلى ذلك. وبعث إلى بارونات فرنسا يشرح لهم ظروف بقائه في الشرق ويلتمس منه إرسال الامدادات له للتعويض عن خسائر حملة دمياط[2].

وهكذا غادر عكا إلى فرنسا في تموز ١٢٥٠م/ربيع الأول ٦٤٨هـ أشقاء الملك وكبار النبلاء تاركين أموالهم و ١٤٠٠ رجل فقط وبقيت الملكة مع زوجها[3].

موقف المسلمين من شجر الدر

سار إلى دمشق الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الأسمردي ليخبر سكانها بمقتل السلطان المعظم تورانشاه وليحصل على تأييد الأمراء للسلطانة شجر الدر.

كان في دمشق الأمير جمال الدين ابن يغمور نائب السلطان والأمراء القيمرية فرفضوا ذلك[4].

وبدأت عمليات التمرد على الحكم الجديد، فاستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل على أموال مدينة غزة وتملك قلعة الصبيبة، ووصل خبر عصيانه إلى القاهرة نهار ١٣ صفر ٦٤٨/حزيران ١٢٥٠ فصادر رجال الدولة داره في القاهرة[5].

وثار الطواشي بدر الدين لؤلؤ نائب الكرك والشوبك وأطلق سراح الملك المغيث عمر بن العادل من السجن ونادى به ملكاً على الكرك والشوبك وحصل على تأييد السكان له وقام بتدبير مملكته لأنه كان قاصراً[6].

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٤٧٣.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ٤٧٣.

(٣) ابن العبري ص ٤٤٥.

(٤) العيني ٣١ ـ شفاء القلوب ٤١٣.

(٥) السلوك ٣٦٦ ـ العيني ٣٢.

(٦) السلوك ٣٦٦ ـ ابن خلدون ٣٦٢ جـ ٥ العيني ٣٢.

وأرسل الأمراء القيمرية في دمشق إلى الناصر صلاح الدين صاحب حلب يخبرونه برفضهم حكم شجر الدر ويطلبون منه المسير إلى دمشق لتملكها[1]. فخرج من حلب أول ربيع الأول ٦٤٨/تموز ١٢٥٠ ووصل إلى دمشق نهار السبت ٨ منه. وفتح له ابن يغمور والأمراء القيمرية أبوابها فدخلها[2] يوم الاثنين ١٠ منه وكان قائدهم الأمير ناصر الدين أبا المعالي حسين بن عزيز الكردي. وتسلم القلعة من مجاهد الدين إبراهيم أخي زين الدين أمير جاندار وفيها من الأموال مئة ألف دينار وأربعماية ألف درهم ما عدا الأثاث، فوزع ذلك على الأمراء ومنهم الأخير جمال الدين ابن يغمور[3].

أما بالنسبة إلى مصر فقد أنف المصريون من تولي إمرأة شؤونهم، فقامت اضطرابات في القاهرة[4] استنكاراً لهذا الأمر، فقد بايعها القاضي ابن بنت الأعز مكرها[5].

كان على رأس هذه الحملة علماء الدين وعلى رأسهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

اغتنم هذه الاضطرابات الملك الناصر يوسف، فبعد استيلائه على دمشق زحف جنوباً حتى حدود مصر[6].

تخوف المماليك من الأيوبيين فألقوا القبض على الأمراء الذين ليسوا من أصل تركي وكذلك على القاضي نجم الدين ابن قاضي نابلس، وعلى كل حال من يتهم بالميل للناصر يوسف[7]. وجدد الأمراء القسم بالولاء لشجر الدر ولقائد الجيش أيبك، ودعماً لمركزهم ونفوذهم أرسلوا إلى الخليفة العباسي

---

(١) السلوك ٣٦٧ ـ العيني ٣٣ ـ ابن خلدون ٣٦٢.

(٢) شفاء القلوب ٤١٣.

(٣) السلوك ٣٦٧ ـ العيني ٣٣.

(٤) العيني ٣٤.

(٥) بدائع الزهور ٢٨٦ ـ السلوك ٣٦٧ وابن بنت الأعز هو قاضي القضاة عبد الوهاب بن خلف بن بدر المصري الشافعي ـ الذهبي ص ٢٨١.

(٦) مرآة الجنان جـ ٤ ص ١١٨ ـ العبري ٤٥٦.

(٧) السلوك ص ٣٦٧.

في بغداد المستعصم يطلبون منه الاعتراف شجر الدر سلطانة على مصر. لكن الخليفة أعاب عليهم تولية إمرأة شؤونهم وكتب إليهم: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً. أما سمعتم حديث الرسول ﷺ لا يفلح قوم ولوا أمرهم إمرأة[1]. ولما وصل خطاب الخليفة إليهم اقتنعوا بخطئهم، وقالوا لا يمكننا حفظ البلاد لامرأة، ولا بد من إقامة، رجل للمملكة تجتمع عليه الكلمة[2]. فأشاروا على شجر الدر بأن تتزوج الأتابك أيبك وتتنازل له عن الملك. قبلت السلطانة بهذا الأمر وتزوجت منه وتنازلت له عن الحكم وذلك نهار السبت ١٩ ربيع آخر ٦٤٨/آب ١٢٥٠م بعد أن حكمت. ٨٠ يوماً وبايع القاضي أيبك التركماني[3].

لم يكن أيبك أكبر الأمراء سناً ولا أقواهم نفوذاً ولا أقدمهم خدمة ولكنه كان ضعيفاً، وقد اختاره الأمراء المماليك لكي يعزلوه متى شأووا[4].

عز الدين أيبك

أيبك تركي الأصل دخل في خدمة الصالح نجم الدين أيوب. قبل ذلك كان عند حكام اليمن بني واسول فعرف بأيبك التركماني. بعد مقتل تورانشاه أصبح أتابك العسكر (القائد) ثم تولى السلطنة بعد تنازل شجر الدر عنها وتزوجت منه[5].

تولى الحكم في ظروف صعبة إذ أن الدولة مهددة بالسقوط نتيجة معارضة الأيوبيين للانقلاب الذي حدث في فارسكور وأسقط حكمهم في مصر وهدد سلطتهم في سوريا. بدأ الأيوبيون بتنظيم جيشهم في سوريا للزحف نحو مصر. وتزعم الحركة الملك الناصر يوسف بتحريض من الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني[6].

---

(١) بدائع الزهور ٢٨٧ ـ السلوك ٣٦٨ ـ العيني ٣٤.
(٢) بدائع الزهور ٢٨٧ ـ درر ص ١٣.
(٣) السلوك ٣٦٨ ـ المختصر ١٨٣ ـ الذهبي ٢١ ـ بدائع الزهور ٢٨٧.
(٤) السلوك ٣٩٣.
(٥) السلوك ص ٣٦٨ ـ البداية والنهاية ١٧٨.
(٦) السلوك ٣٧٢ ـ النجوم الزاهرة ص ٥ و ٦ جـ ٧.

وتمرد كذلك المماليك البحريين بعد خمسة أيام من تسلمه السلطة ونادوا بأن يكون السلطان من بني أيوب، وقاد حركتهم الأمراء أقطاي وسنقر الرومي وبيبرس البندقداري وبلبان وأن يكون المعز أتابكاً[1].

حاول المماليك أضعاف المعارضة الأيوبية فاتفقوا على إقامة ملك من الأيوبيين إلى جانب أيبك ليظهروا أمام الرعية بأنهم لم يتمردوا على الأيوبيين الحكام الشرعيين، فأقاموا الأشرف موسى بن يوسف المنصور بن الكامل إلى جانبه، وهذا طفل في السادسة من عمره[2] بايعوه سلطاناً في ٣ جمادي الأول ٦٤٨/ ١٢٥٠ على أن يكون شريكاً في الحكم وأيبك المدبر لشؤون الدولة، وصارت الخطبة للاثنين على منابر مصر وسكت النقود باسمهما[3]. والمراسيم تصدر عن الملكين الأشرف والمعز بالصورة التالية: رسم الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي والملكي المعزي[4].

لم تنطل الحيلة على الأيوبيين لأن الأشرف لم يكن له سوى الاسم من الملك والحاكم الفعلي الملك عز الدين أيبك[5].

كان الجيش المملوكي المرابط في غزة يقوده الأمير ركن الدين خاص ترك قد عاد إلى الصالحية ونزل بالسابح، ونادى الأمراء هناك بالمغيث عمر بن العادل صاحب الكرك ملكاً وخطبوا له يوم الجمعة ٤ جمادي الآخرة ٦٤٨[6].

وعندما وصل الخبر إلى القاهرة أعلن المماليك وعلى رأسهم أيبك أن البلاد للخليفة العباسي في بغداد المستعصم بالله وأن أيبك نائبه فيها وذلك نهار الأحد ٦ جمادي الآخرة ٦٤٨هـ/ تشرين الأول ١٢٥٠م. وأعلنت تعبئة

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥ و ٦.

(٢) السلوك ٣٦٩ ـ بدائع الزهور ٢٨٩ ويسميه عيسى ـ ابن خلدون ٣٦٣ ـ شفاء القلوب ٤٥١ـ العيني ٣٥ يذكر أن العمر ١٠ سنوات ـ المختصر ١٨٣ ـ تاريخ سوريا ٢٦٨ ـ البداية والنهاية ١٧٨ ـ النجوم الزاهرة ص ٥ جـ ٧. تحفة الناظرين ١٧٢ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٥.

(٣) السلوك ٣٦٩ ـ بدائع الزهور ٢٨٩ ـ البداية والنهاية ١٧٩ جـ ١٣ ذيل مرآة الزمان ٥٦.

(٤) النجوم الزاهرة ص ٦ جـ ٧ ـ السلوك ٣٦٩.

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦ ـ بدائع الزهور ٢٨٩ ـ السلوك ٣٧٠.

(٦) العيني ٣٦ ذيل مرآة الزمان ٥٦.

العسكر نهار الاثنين ٧ منه وجدُد العهد للملكين الأشرف والمعز، وعُين شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد في الوزارة[١].

أثناء الاستعداد لقتال المتمردين عليه أقدم المعز أيبك على خطوة مهمة بأن أمر في ١٨ شعبان ٦٤٨/كانون الأول ١٢٥٠ بهدم مدينة دمياط بعد التشاور مع رجال الدولة كي لا ينتهز الصليبيون الأزمة الناشئة بين المماليك والأيوبيين فيقدمون على احتلال المدينة وهذا أمر يدل على بعد نظر الملك المعز. فخرج العمال من القاهرة لهذه المهمة فهدموا أسوارها ودمروا معالمها ولم يبق منها إلا الجامع[٢]. وأسوارها كان قد بناها الخليفة العباسي المتوكل، وكذلك أمر ببناء مدينة في البر سميت المنشية[٣].

كان الناصر الأيوبي يوسف قد دخل دمشق في ٩ تموز ١٢٥٠/صفر ٦٤٨ فاستقبله سكانها استقبالاً حاراً وكان ذلك بداية الصراع المرير بين دمشق والقاهرة. ثم غادرها على رأس جيش كبير نهار الأحد منتصف رمضان ٦٤٨هـ/كانون الثاني ١٢٥١ ومعه من الملوك الأيوبيين عماد الدين إسماعيل بن العادل والأشرف موسى بن المنصور والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين وأخوه نصرت الدين والظاهر شادي بن الناصر داوود وأخوه الأمجد حسن والأمجد عباس وغيرهم[٤]...

اتجه الجيش نحو مصر بتحريض الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني[٥] واتصل الناصر يوسف بالصليبيين، إذ أرسل سفارة إلى لويس في عكا يعرض عليه التحالف[٦]. ولكن لويس خشي عاقبة ذلك العرض على الأسرى الصليبيين في القاهرة ومع أنه كان يفضل التحالف مع دمشق

---

(١) السلوك ٣٧٠ ـ العيني ٣٦ ـ شفاء القلوب ٤٥١ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٦.

(٢) السلوك ٣٧٢ ـ العيني ٣٧ ـ لم يذكر الجامع ـ كنز الدرر ص ١٥ ـ البداية والنهاية ١٣/١٨١ ـ المختصر ١٨٤.

(٣) المختصر ١٨٤.

(٤) السلوحك ٣٧٢ ـ العيني ٣٩ ـ كنز الدرر ١٦ ـ المختصر ١٨٤.

(٥) مرآة الزمان ٤/١١٨ ـ العبري ٤٥٦ ـ السلوك ٣٧٢ ـ المختصر ١٨٤ ويسميه الأرمني.

(٦) تاريخ الحروب الصليبية ٤٧٤.

لموقعها الحربي بالنسبة للصليبيين، ففضل الوقوف على الحياد[1].

تقدم الجيش الأيوبي يقوده الملك الناصر إلى كراع وهو مكان قريب من العباسية[2]. فاضطربت الدولة المملوكية وبدأ أيبك بالاستعداد للقتال. جمع العرب من الصعيد[3] وأمر بإحضار الخيل من المراعي. ونهار الاثنين ٨ شوال ٦٤٨هـ/شباط ١٢٥١ سار الأمير حسام الدين أبو علي من القاهرة كان الوقت شتاءً في ٩ منه قاد الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، قائد المماليك البحريين عسكر الترك، والتقى الجيشان المصريان في الصالحية في ١١ منه. ونهار الخميس ٣ ذي القعدة قاد السلطان أيبك بقية الجيش إلى الصالحية حيث اجتمع بالجيش المعسكر هناك[4]. ثم سار الجيش إلى بسموط وهو موقع قريب من العباسية حيث وصل نهار الخميس ١٠ منه[5].

وقف الجيشان المصري المملوكي والسوري الأيوبي وجهاً لوجه كان جيش الناصر يتفوق بالعدد على المماليك وظن الكثيرون بأن النصر سيكون حليفه خاصة وإن عدداً كبيراً من جند مصر يميلون إليه. ولكن كان جيشه يضم أعداداً من مماليك أبيه البحريين وهم من العنصر التركي ويرتبطون بالبحريين برابطة العرق.

وكذلك كانت عناصر جيشه تكن كرهاً شديداً للأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة[6].

نظم الناصر جيشه وقسمه إلى ميمنة وميسرة وقلب وكذلك المعز أيبك. بدأت المعركة الساعة الرابعة صباحاً، شباط ١٢٥١/ رمضان ذي القعدة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٤٧٥.

(٢) السلوك ٣٧٤ ـ العيني ٤٠ ـ ابن خلدون ٣٦٣ ـ الحروب الصليبية ٣٧٤ والعباسية تبعد ١٢ ميلاً إلى الشرق من مدينة الزقازيق في الدلتا.

(٣) السلوك ٣٧٢.

(٤) السلوك ٣٧٣ ـ كنز الدرر ١٧ ـ التاريخ ١٠ ذي القعدة.

(٥) السلوك ٣٧٤ ـ شفاء القلوب ٤١٤ ـ العيني ٤٠ ـ الحروب الصليبية ٤٧٥.

(٦) السلوك ٣٧٤ ـ العيني ٤٠.

٦٤٨هـ وانتصر الأيوبيون بادىء الأمر، إذ هاجمت ميمنة وميسرة جيش دمشق المماليك فتراجعت ميمنة المصريين وولى جنودها الأدبار[١] ولاذوا بالصعيد[٢].

على أثر هذا النصر أقيمت الخطبة للملك الأيوبي الناصر في القاهرة وبالقلعة. وأقام الأمير جمال الدين بن يغمور بالعباسية وأحمى الحمام للناصر وجهز له الإقامة[٣] وأخذ جيش الناصر يطارد المصريين المنهزمين ووصل في أثرهم إلى العباسية[٤].

بان النصر للناصر وهو ثابت في قلب الجيش وأمامه المعز أيبك المملوكي. وخاف أمراء الناصر منه وخاصة البحرية، فتخلوا عنه في تلك اللحظة الحرجة حيث بات النصر قاب قوسين أو أدنى، وانحازوا إلى أبناء جلدتهم من المماليك المعزية[٥] منهم الأمراء جمال الدين أيدندي العزيزي وجمال الدين آقوش الحسامي وبدر الدين بكتوت الظاهري وسليمان العزيزي وانضموا إلى المعز أيبك. عندئذ تحوّل انتصار الناصر إلى هزيمة ولاذ بالفرار إلى بلاد الشام[٦] وفوجيء أنصاره بفراره فاختلفت آراؤهم واقترح بعضهم دخول القاهرة لأنها خالية من جيش المماليك والمصريون المنهزمون رحلوا جنوباً إلى الصعيد ومنهم من فكر بالعودة إلى بلاد الشام[٧] ووقع عدد كبير من أمراء الأيوبيين بالأسر منهم المعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصرة الدين محمد والصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل والأشرف ملك حمص والزاهر وغيرهم. وقتل عدد من الأمراء

---

(١) السلوك ٣٧٤ ـ الحروب الصليبية ٤٧٥ يشر فقط إلى انتصار الشاميين أول الأمر. البداية والنهاية ١٧٩ ـ المختصر ١٨٤ ـ النجوم الزاهرة ص ٦ جـ ٧ كنز الدرر ١٧.

(٢) النجوم الزاهرة ص ٦ ـ جـ ٧ ـ ذيل المرآة الزمان ٥٧.

(٣) السلوك ٣٧٤ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧ .

(٤) المختصر ١٨٤ .

(٥) السلوك ٣٧٥ ـ مرآة الزمان ١١٨/ $ ـ العيني ٤٠ .

(٦) مرآ الزمان ١١٨/ ٤ ـ السلوك ٣٧٥ ـ العيني ١٨٤ ـ شفاء القلوب ٤١٥ كنز الدرر ١٧ ـ النجوم الزاهرة ٧/٨ ـ البداية والنهاية ١٧٩ ـ المختصر ١٧٩.

(٧) المختصر ١٨٥.

منهم شمس الدين القيمري والأمير بدر الدين الزرزاري[١] وغيرهما...

بعد الانتصار الذي أحرزه أيبك على الأيوبيين، أقدم المماليك على اضطهاد المصريين، نهبوا الأموال وسبوا النساء وبثوا الرعب في نفوس المواطنين وبغوا وعتوا حتى بات لدى السكان قناعة بأن الصليبيين لو تملكوا لما فعلوا ذلك[٢]. وذلك انتقاماً منهم لميلهم إلى الناصر.

بعد الهزيمة اتصل الناصر بلويس التاسع في عكا يعرض عليه التحالف معه ويتنازل له عن القدس، استغل هذه السفارة الملك الصليبي لإطلاق الأسرى في مصر وأرسل سفارة إلى المعز أيبك يطلعه على اتصال دمشق به ويطلب منه إطلاق سراح الأسرى الصليبيين في مصر[٣]. وألح إليه بأنه سوف يتحالف مع الناصر إذا لم يستجب المعز لطلبه.

ونجح سفيره يوحنا فانسيين في مهمته وزار القاهرة مرتين واستطاع أن يحقق إطلاق سراح أسرى معركة غزة ١٢٤٤م/٦٤٣ منهم مقدم الاسبتارية، ثم إطلاق سراح ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف من أسرى معارك المنصورة لقاء تحرير ٣٠٠ أسير مسلم[٤].

ورغب المعز أيبك أن تزداد الصلة وثوقاً مع لويس فأرسل إليه مع الدفعة الثانية من الأسرى الذين أطلق سراحهم هدية عبارة عن فيل وحمار وحشي. انتهز لويس هذه البادرة وطالب بإطلاق سراح جميع الأسرى دون مقابل[٥]. ولكي يزداد موقفه قوة أرسل رسولاً إلى بلاط دمشق ييف البريتوري الذي يحسن اللغة العربية. عندها استجاب المعز لمطالب لويس لكي يبقيه إلى جانبه ضد الملك الناصر[٦] قرر الملك المعز مهاجمة الملك الناصر في بلاد الشام

---

(١) السلوك ٣٧٥ ـ العيني ٤١ ـ كنز الدرر ١٧ ـ النجوم الزاهرة ٧/٨ و ٧/١٠ ـ البداية والنهاية ١٧٩ ـ المختصر ١٨٥.

(٢) العيني ٤٣ ـ النجوم الزاهرة ٧/٩.

(٣) الحروب الصليبية ٤٧٥ ـ تاريخ سوريا ٢٧٣ جـ ٦.

(٤) الحروب الصليبية ٤٧٦.

(٥) الحروب الصليبية ٤٧٦ ـ تاريخ سوريا ٢٧٣ ـ ٦.

(٦) الحروب الصليبية ٤٧٦.

للقضاء على المقاومة الأيوبية وعقد معاهدة مع لويس الذي فضل التعامل مع المعز المنتصر في معركة العباسية ونصت المعاهدة على القيام بحملة مشتركة ضد الناصر وإن يحصل لويس على مملكة القدس حتى حدود نهر الأردن شرقاً متى تم النصر على جيش الناصر[1].

لكن هذا التحالف لم يؤد إلى نتائج بين المماليك والصليبيين، إذ علم الناصر بتفاصيل الخطة العسكرية من المسلمين الذين يعارضون أي لقاء مع الصليبيين، فأسرع بجيش من عشرين ألف جندي إلى غزة ليحول دون الاتصال بين أعدائه وخيم بين غزة والداروم[2].

خرج المماليك من مصر بقيادة أقطاي قاصدين غزة التي وصلوا إليها بعد فوات الأوان إذ كان قد دخلها الناصر يوسف. أما لويس فقد استولى على يافا وحصنها وأقام فيها الاستحكامات[3].

وبقيت الجيوش مدة سنة معسكرة أمام بعضها دون أن ينشب بينها قتال[4].

وتدخل الخليفة العباسي واستجاب المعز والناصر لوساطته، فقد أرسل الخليفة بعثة برئاسة نجم الدين البادرائي[5]. وصل الرسول إلى القاهرة يرافقه عز الدين أزدمر وكاتب الإنشاء بحلب نظام الدين أبو عبد الله محمد بن المولى الحلبي للتمهيد للصلح. وبقي البادرائي في مصر حتى تم توقيع الصلح بين المسلمين الذي نص على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين وغزة والقدس ونابلس والساحل كله وللناصر الأيوبي بقية بلاد الشام. وإن يطلق المعز جميع الأسرى من جيش الناصر. وأقسم الملكان على تنفيذ ذلك.

---

(١) العيني ٨٠ ـ الحروب الصليبية ٤٧٦ ـ البداية والنهاية ١٨٤.

(٢) كنز الدرر ٢٠ ـ المختصر ١٨٦ ـ تاريخ سوريا ٢٧٣.

(٣) الحروب الصليبية ٤٧٧ ـ تاريخ سوريا ٢٧٣.

(٤) كنز الدرر ٢٢ ـ الحروب الصليبية ٤٧٧.

(٥) السلوك ٣٨٥ ـ العيني ٦٩ ـ المختصر ١٨٦ ـ درر ٢٠ والبادرائي هو عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادي لقب بنجم الدين البادرائي نسبة إلى بادريا قرية من أعمال واسط في العراق.

وكتبت العهود بينهما[١]. وتم التوقيع في صفر ٦٥١هـ/ نيسان ١٢٥٣م.

عاد المعز أيبك إلى قلعة الجبل يوم الثلاثاء ٧ صفر، استقبله الملك الأشرف موسى مهنئاً. وقال له أقطاي: كل ما حصل بسعادتك وما سعينا إلا في تقرير ملكك. وكان أقطاي يؤثر بقاء الأشرف خشية استبداد المعز بالملك ونزل الرسول البادرائي في القاهرة[٢].

أطلق المعز ملوك الأيوبيين الأسرى عنده منهم المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين وأخوه نصرت الدين وسائر الأسرى من أبناء الملوك والأمراء وأحضرهم إلى دار الوزارة ليشهدوا توقيع الصلح مع الناصر[٣].

وقدم بعد ذلك إلى المعظم هدية قيمة، وأعطى نظام الدين بن المولى وعز الدين أزدمر عشرة آلاف درهم[٤].

وهكذا تبددت أحلام الملك لويس بامتلاك القدس.

بعد إبرام الصلح عاد الملك الناصر يوسف من غزة إلى بلاد الشام عبر المنطقة التي يسيطر عليها الصليبيون سالباً خيراتها. ووصل إلى أسوار عكا وفرض على سكانها خمسين ألف دينار فرفضوا الطلب فهددهم بقطع الأشجار وإتلاف المزروعات فاستجابوا إلى ذلك لأنهم كانوا عاجزين عن المقاومة[٥]. واقتحم مدينة صيدا ونهبها وغادرها غانماً وآسراً. وكان لويس قد حصن المراكز الصليبية الساحلية وخاصة صيدا التي دمر المسلمون أسوارها أثناء حملته على مصر. وكاد ينتهي من عمله فإذ بجماعة من التركمان تهاجم المدينة وتدمرها وكان لويس في صور، فقتلوا من بها من النصارى وغادروها غانمين. وقد أرسل الموارنة رسالة إلى لويس طالبين النجدة[٦].

---

(١) السلوك ٣٨٥ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٤ ـ المختصر ١٨٦ ـ شفاء القلوب ٤١٥ ـ ابن خلدون ٣٦٣ ـ العيني ٦٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٨.

(٢) السلوك ٣٨٦.

(٣) العيني ص ٨٠ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠.

(٤) السلوك ص ٣٨٦.

(٥) من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٧٣.

(٦) من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٧٤.

وحاول لويس الانتقام فأرسل حملة هاجمت بانياس فردت على أعقابها[1]. وفي تلك الأثناء شب حريق كبير في مدينة حلب ٦٥٠ م/ ٥[2] أدى إلى احتراق ستماية منزل وكان ذلك بتدبير من الصليبيين.

(١) من تاريخ سورياغ ٢٧٤ ـ الحروب الصليبية ص ٤٧٨.

(٢) العيني ص ٦٩ ـ السلوك ٣٨٤ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٢.

الفصل الرابع

المعز أيبك والمماليك

بعد أن تخلص المعز من الخطر الأيوبي تعرض لمؤامرات المماليك البحريين وخاصة أقطاي. وكان يخشى خطر هذه الفئة. فأنشأ فرقة مملوكية جديدة موالية له نسبت إليه وهي المعزية وعين مساعده قطز نائباً له، والصاحب شرف الدين الفائزي وزيراً وبدر الدين السنجاري قاضياً[1]. ثم أخرج المماليك البحريين من ثكناتهم[2].

قوي نفوذ الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار الخصم اللدود للمعز واستفحل أمره وانحاز المماليك البحريين إلى جانبه[3]. وأخذ يتصرف كأنه ملك متوج[4].

ولكي يدعم مركزه أرسل الصاحب فخر الدين محمد بن علي بن محمد بن سليم إلى الملك المظفر الأيوبي تقي الدين محمود صاحب حماة يخطب ابنته. وصل الرسول إلى حماة استقبله صاحبها بالترحاب واستجاب لطلب أقطاي وجهز ابنته بما يليق بمقامها[5]. وقد لقبه أنصاره بالملك الجواد[6] وبذلك سمت نفسه إلى الحكم وكثر أتباعه وأضحوا من القوة بحيث لا يعبأون بمراسيم الملك أيبك ويتطاولون عليه وكان يراقبهم بدقة ويضمر لهم السوء

---

(١) العيني ٧٩.

(٢) بدائع الزهور ٢٩.

(٣) العيني ص ٧٩ ـ السلوك ٣٨٩ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠.

(٤) مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٢٨ ـ كنز الدرر ص ٢٥ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١.

(٥) مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٢٨ ـ العيني ٨٠ ـ الذهبي ٢١٠ ذيل مرآة الزمان ٥٨ ـ كنز الدرر ص ٢٥ ـ النجوم الزاهرة ص ١١.

(٦) النجوم الزاهرة ص ١١ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٨.

ويخطط للقضاء على أقطاي لأنه الرأس المدبر للأمور خاصة عندما وصلته أخباره أنه قرر عزله من الملك، وأنه إذا تخلص منه تصفو له الأمور وينهار أنصاره من البحريين[1]. وكاتب المعز صلاح الدين يوسف بأمر القضاء على أقطاي فلم يلق جواباً[2].

وطلب أقطاي من المعز أن يأذن له بالإقامة مع عروسه في قلعة الجبل لأنها من بنات الملوك[3] وأرسل جماعة من خاصته لإحضارها من حماة، فرافقوها إلى دمشق ومنها إلى مصر وهي بثياب العرس[4]. عندئذ أسرع أيبك للقضاء عليه، لجأ إلى الخديعة استدعاه نهار الأربعاء ٣ شعبان ٦٥٢هـ/ إلى القلعة متذرعاً أنه يريد أن يتشاور معه في أمور مهمة، ورتب له الكمائن وراء قاعة الأعمدة، وأمر رجاله بقتله عند اجتيازه الدهليز[5].

كان أقطاي واثقاً من نفسه، انخدع وحضر إلى القلعة على غير استعداد ظناً منه أن الأمر يتعلق بالمشورة فقط، وقد اصطحب معه نفراً قليلاً من أنصاره، ولم يخبر أحداً من خوشداشيته للمكانة التي يتمتع بها[6]. ولكنه لم يدر ما يخبىء له القدر، فلما وصل إلى باب القلعة منع المتآمرون مرافقيه من الدخول ووثب عليه قطز وبهادور وسنجر[7] وانهالوا عليه ضرباً بالسيوف حتى خر صريعاً.

شاع خبر اغتياله بالقاهرة[8] أسرع إلى القلعة سبعمائة من أنصاره وخشداشيته وعلى رأسهم بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي وسنقر الأشقر

---

(١) النجوم الزاهرة ص ١١ ـ العيني ٨٠.

(٢) النجوم الزاهرة ص ١١ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٨.

(٣) كنز الدرر ص ٢٥ ـ مرآة الجنان ١٢٨ ـ النجوم الزاهرة ص ١١.

(٤) النجوم الزاهرة ص ١١.

(٥) السلوك ٣٩٠ ـ العيني ٨٥ ـ كنز الدرر ٢٦.

(٦) العيني ٨٥ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٢٨.

(٧) العيني ٨٦ ـ السلوك ٣٩٠ ـ المختصر ١٩٠ ـ شفاء القلوب ٤٥٠ ـ بدائع الزهور ٢٩١.

(٨) السلوك ٣٩٠ ـ كنز الدرر ص ٢٦ ـ ابن خلدون ٣٦٣ ـ أبو شامة ١٩٦.

وبيسرى وسكز وبرامق[1] وفي ظنهم أنه حي وأنه محتجز. وحاصروا القلعة. عندها ألقى القتلة إليهم رأسه من أعلى السور فلاذوا بالفرار[2]. خرجوا ليلاً من القاهرة. وكان المعز قد أمر بإقفال أبوابها لمنعهم من الخروج منها لاعتقالهم. فأحرقوا باب القراطين وخرجوا منه فسمي منذ ذلك الحين بالباب المحروق[3]. ورحلوا إلى غزة. وعندما وصلوا إليها تفرقوا في بلاد الشام، فمنهم من قصد الملك المغيث عمر صاحب الكرك، ومنهم من عمل على قطع الطرق في الأغوار، وبعضهم استقر في غزة من هؤلاء بيبرس وبلبان وازدمر وسنقر وسكز وقلاوون وبيسرى، واتصلوا بالملك الناصر في دمشق ووضعوا أنفسهم بتصرفه فرحب بهم[4]. وفريق لجأ إلى السلطان علاء الدين ملك سلاجقة الروم على رأسهم سنجر[5]. بعد فرار أنصار أقطاي القتيل عزل المعز الأشرف موسى وانفرد بحكم مصر[6]. واعتقل من بقي من أنصار أقطاي في القاهرة صادر أملاكهم وأموالهم وتحفظ على نسائهم[7].

أما الفريق الذي لجأ إلى الملك الناصر يوسف فتوجهوا إلى دمشق عبر المنطقة التي يسيطر عليها الصليبيون فنهبوها، ووصلوا إلى مشارف المدينة، خرج الملك الناصر مرحباً بهم وخلع عليهم، أخذوا يشجعونه على قصد مصر لانتزاعها من المعز أيبك[8].

تخوف المعز من وجودهم في دمشق فأرسل إلى الناصر يخوفه منهم، وكان جواب الناصر أن يعيد المعز إليه البلاد الساحلية لإعطائها للبحريين لأنها من ضمن اقطاعاتهم.

---

(١) السلوك ٣٩٠ ـ بدائع الزهور ٢٩٢ ـ الذهبي ٢١١ ـ كنز الدرر ٢٦.
(٢) السلوك ٣٩٠ ـ بدائع الزهور ٢٩١ ـ المختصر ١٩٠ ـ الذهبي ٢١١ ـ مرآة الجنان ١٢٨.
(٣) السلوك ٣٩١ ـ العيني ٨٧ ـ بدائع الزهور ٢٩٢.
(٤) السلوك ٣٩١ و ٣٩٢ ـ مرآة الجنان ١٢٨ ـ كنز الدرر ٢٦ ـ المختصر ١٩٠.
(٥) السلوك ٣٩٢.
(٦) شفاء القلوب ٤٥٠ ـ بدائع الزهور ٢٩٣ ـ المختصر ١٩٠ ـ ابن خلدون ٣٦٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٩.
(٧) شفاء القلوب ٤٥٠ ـ العيني ٨٧.
(٨) السلوك ٣٩٣ ـ العيني ٨٨ ـ المختصر ١٩٠.

رأى المعز أنه من الحكمة أن يستجيب لطلب الناصر، فأعاد تلك الاقطاعات للبحريين وأصدر مراسيم بذلك[1].

وكتب المعز كذلك إلى سلطان سلاجقة الروم «بأن البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند إيمان ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم وإن استأمنتهم خانوا وإن استحلفتهم كذبوا وإن وثقت بهم غدروا فتحرر منهم على نفسك فإنهم غدارون مكارون خوانون ولا آمن أن يمكروا بك»[2].

تخوف السلطان السلجوقي منهم وكانوا مئة وثلاثين فارساً، استدعاهم وعرض عليهم كتاب المعز وقال لهم: يا أمراء ما لكم ولأستاذكم. تقدم للحديث الأمير علم الدين سنجر الباشقردي وقال: يا مولانا من هو أستاذنا؟ فقال: «المعز صاحب مصر! فقال سنجر يحفظ الله مولانا السلطان، إن كان الملك المعز قال ذلك في كتابه أنه أستاذنا فقد أخطأ. إنما هو خشداشيتنا ونحن ولنياه علينا، وكان فينا من هو أكبر منه سناً وأقدر وأفرس وأحق بالملكية، فقتل بعضنا وحبس بعضنا وعزق بعضنا فهربنا منه وتشتتنا في البلاد، ونحن التجأنا إليك». فنال بذلك إعجاب ملك الروم الذي استخدمهم[3].

ثم تم الصلح بين الملك الناصر يوسف وصليبيي عكا لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وأربعين يوم تبدأ في مطلع السنة الهجرية ٦٥٣ ويكون للصليبيين من نهر الشريعة غرباً[4].

استقر المماليك البحريين الفارين من مصر في العوجاء وعلى رأسهم الأمراء بلبان الرشيدي وازدمر وسنقر وبيسرى وقلاوون وبيبرس وغيرهم من أنصار أقطاي وساندهم الملك الأيوبي الناصر يوسف بجيش من دمشق[5].

تقدم الملك المعز أيبك بجيشه إلى حدود مصر الشرقية وخيم بالباردة

---

(١) السلوك ٣٩٣.
(٢) السلوك ٣٩٣.
(٣) السلوك ٣٩٣.
(٤) السلوك ٣٩٣.
(٥) السلوك ٣٩٤ ـ كنز الدرر ٢٩.

قرب العباسية خوفاً من المماليك البحريين، وبقي معسكراً حتى سنة ٦٥٤هـ عندما قدم إلى مصر البادرائي رسول الخليفة العباسي المستعصم ليجدد الصلح المعقود سابقاً والذي وهت بنوده بين الملكين الناصر والمعز نتيجة الخلافات[١]. أرسل المعز إلى قائده برهان الدين خضر السنجاري يأمره بالحضور، فقدم إليه مع جماعة من الفقهاء. وتقرر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح في ساحل الشام بالإضافة إلى مصر وتكون الحدود بينهما بئر القاضي بين الواردة والعريش، وأن لا يأوي الملك الصالح رجال البحرية الفارين وتولى الصلح قاضي القضاة بدر الدين السنجاري. ولما تم التوقيع على الصلح عاد الرسول البادرائي إلى بغداد. والملك الناصر من تل العجول إلى دمشق والملك المعز من العباسية إلى قلعة الجبل بعد أن أمضى فيها ثلاث سنوات ٦٥٥هـ/ ١٢٥٦م[٢].

ورافق البادرائي في عودته الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولاً من قبل الملك المعز يلتمس من الخليفة بأن يتشرف بالخلع والألوية على الملك المعز أسوة بملوك مصر الأيوبيين[٣].

وبنتيجة الصلح غادر المماليك البحريين الذين كانوا في كنف الملك الناصر مركزهم ولجأوا إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك[٤].

الخلاف مع شجر الدر

بعد أن تخلص الملك المعز من المماليك البحريين بدأ خلاف جديد غير متوقع وذلك مع زوجته شجر الدر التي كانت تذكره بفضلها عليه وتردد على مسمعه: لولا أنا ما وصلت أنت إلى السلطة[٥]. وقد اطلع على مراسلات سرية بينها وبين المماليك البحريين في الكرك، فقرر الانتقام منها وذلك

---

(١) السلوك ٣٩٧ ـ شفاء القلوب ٤٥٠ ـ العيني ١٢٢ ـ النجوم الزاهرة ص ١٢و ١٣ ـ ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٢.

(٢) السلوك ٣٩٨ ـ النجوم الزاهرة ص ١٣ ـ المختصر ١٩١ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٩.

(٣) السلوك ٣٩٨ ـ ذيل مرآة الزمان ص ١٢.

(٤) السلوك ٣٩٨.

(٥) بدائع الزهور ص ٢٩٢ ـ ابن العبري ٤٥٥.

بالزواج من غيرها. فأرسل إلى الملك المظفر صاحب حماة يطلب ابنته. وكذلك إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل للغرض ذاته[١]. علمت شجر الدر بالأمر فتغيرت عليه، وازداد الخلاف بينهما[٢]. خططت لاغتياله. ومن جهته الملك المعز عزم على قتلها. وصادف أن اعتقل المعز عدداً من المماليك البحريين في أم البارد وأرسلهم مكبلين إلى سجن قلعة الجبل منهم أيدكين الصالحي. ولدى وصولهم قرب الشباك الذي تقعد فيه شجر الدر علم المملوك أيدكين بوجودها فحياها مخاطباً إياها باللغة التركية إن ما حل بهم ما هو إلا نتيجة معارضتهم لخطوبته ابنة ملك الموصل. فأومأت بمنديل بأنها سمعت كلامه[٣]. واتصلت كذلك بالملك الناصر يوسف، فقد أرسلت نصراً العزيزي مع هدية إلى الناصر تخبره بأنها عزمت على قتل المعز، وتعرض عليه الزواج وملك مصر. خشي الناصر من أن يكون بالأمر خدعة فلم يجبها إلى طلبها[٤].

وصلت أخبار اتصالها بالملك الناصر إلى بدر الدين لؤلؤ فأطلع المعز على ذلك وحذره منها. عندها عزم على مضايقتها وقرر إخراجها من القلعة إلى دار الوزارة[٥].

استقر المعز بعد ذلك في مناظر اللوق بعد تلك الوحشة بينهما[٦]. ولكنها بدهائها ومكرها خدعته، إذ أرسلت إليه رسالة رقيقة مع القاضي تاج الدين بن بنت الأعز[٧] تطلب منه الحضور.

انخدع المعز وذهب إلى القلعة للقائها، وكانت قد استبدت بشؤون

(١) النجوم الزاهرة ص ١٣ ـ مرآة الجنان ١٢٩ يذكر فقط ابنة ملك الموصل ـ ذيل مرآة الجنان ٤٥ ـ المختصر ١٩٢ ـ السلوك ٣٩٨.

(٢) السلوك ٣٩٨ ـ بدائع الزهور ٢٩٣.

(٣) السلوك ٤٠١ و ٤٠٢ ـ العيني ١٤١ ـ كنز الدرر ص ٣١ جـ ٨ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٥.

(٤) السلوك ٤٠٢.

(٥) السلوك ٤٠٢.

(٦) السلوك ٤٠٣ ـ بدائع الزهور ٢٩٣.

(٧) بدائع الزهور ٣٩٢ ـ وهو قاضي القضاة عبد الوهاب بن خلف بن بدر المصري الشافعي الذهبي ٢٨١.

الدولة، فكانت قد ألزمته سابقاً على طلاق زوجته الأولى أم ابنه علي وأخفت ذخائر الملك الصالح أيوب[١] ـ استقبلته بحفاوة وقبلت يده وهي تضمر له الشر[٢]. وعندما عاد من لعب الأكرة دخل إلى الحمام[٣]، وكانت قد أعدت خمسة من غلمانها لقتله فيه منهم محسن الجوجري[٤] والخادم نصر العزيزي وسنجر وهم من مماليك أقطاي وذلك نهار الثلاثاء ١٤ ربيع الأول ٦٥٥هـ/نيسان ١٢٥٧م. وبعد دخوله إلى الحمام ليلاً أغلق عليه الباب محسن مع رفاقه وانهالوا عليه ضرباً وبعضهم أخذ بخناقه استغاث بزوجته شجر الدر، رق قلبها وطلبت منهم الكف عن قتله، فأغلظ لها محسن القول قائلاً: متى تركناه قتلنا وقتلك وأجهزوا عليه[٥].

بعد وفاته بعثت شجر الدر بإصبع الملك القتيل المعز مع خاتمه إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبي تطلب منه تولي الملك. فلم يجرؤ على ذلك[٦].

أشاعت أن الملك مات فجأة في الليل وعلا الصراخ في القلعة[٧].

لم يصدق مماليكه الأمر لأنهم تركوه في الماء سليماً معافى وفي الصباح وجدوه ميتاً.

صباح الأربعاء شاع خبر مقتل الملك المعز، بادر الأمير علم الدين سنجر الغتمي وهو أقوى المماليك البحريين وداهم الدور السلطانية اعتقل النساء والخدم واستجوبهم فاعترفوا على القتلة. قبض على شجر الدر ومحسن

(١) السلوك ٤٠٣.
(٢) بدائع الزهور ٢٩٣.
(٣) العيني ١٤١ ـ المختصر ١٩٢ ـ الذهبي ٢٢٢.
(٤) ذيل مرآة الزمان ص ٤٥.
(٥) السلوك ٤٠٣ ـ العيني ١٤١ يشير إلى قتله ويذكر التاريخ ٢٣ ربيع الأول ـ العبري ٤٥٦ ـ بدائع الزهور ٢٩٤ ـ مرآة الجنان ١٣٦ ـ كنز الدرر ٣٢ ـ المختصر ١٩٢ ـ البداية والنهاية ١٩٦ ـ أبو شامة ١٩٦.
(٦) السلوك ٤٠٣ ـ العيني ١٤٢.
(٧) السلوك ٤٠٣ ـ العيني ١٤٢.

الجوجري وناصر الدين حلاوة، وفر نصر العزيزي إلى بلاد الشام. وأراد المماليك قتل شجر الدر فحماها الصالحية[1] ونقلت إلى البرج الأحمر بالقلعة[2]. ثم صلبوا الخدم الذين نفذوا عملية قتل المعز واحتجزوا الصاحب بهاء الدين بن حنا لأنه كان وزيرها وهو الذي حمل الرسالة إلى الملك المعز. وصادروا منه ستين ألف دينار[3]. ثم حملوا شجر الدر إلى أم علي زوج المعز الأولى يوم الجمعة ٢٧ ربيع الأول. فأمرت جواريها بضربها بالقباقيب حتى ماتت نهار السبب وألقيت جثتها من أعلى سور القلعة إلى الخندق وهي شبه عارية، وبقيت ملقاة في الخندق أياماً ثم دفنت، وكانت قد أتلفت كثيراً من الجواهر والحلى التي كانت تمتلكها عندما علمت أنها ميتة لا محالة[4] وقد قيل فيها:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس[5]

وهكذا انتهت حياة أول سلطانة في العالم الإسلامي.

السلطان نور الدين علي بن المعز

بعد مقتل السلطان المعز أيبك نادى المماليك بابنه علي سلطاناً على مصر ولقبوه بالمنصور ربيع الأول ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م[6] ما عدا الأمير عز الدين أيبك الحلبي الذي أراد الأمر لنفسه ولكنه تراجع وأيد الملك الجديد[7].

كان علي في الخامسة عشرة من عمره[8] يميل إلى اللهو واللعب لصغر

---

(١) العيني ١٤٣ ـ المختصر ١٩٢.

(٢) السلوك ٤٠٣ ـ النجوم الزاهرة ٣٧٧ جـ ٦ ـ المختصر ١٩٢ ـ العيني ١٤٣.

(٣) العيني ١٤٣ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٢ ـ المختصر ١٩٢.

(٤) السلوك ٤٠٤ ـ بدائع الزهور ٢٩٤ ـ المختصر ١١٢ ـ البداية والنهاية ١٩٦ ـ النجوم الزاهرة ٣٧٨ ـ كنز الدرر ٣٢ ـ الذهبي ٢٢٢ ـ ذيل مرآة الزمان ٦٢ أبو شامة ١٩٦.

(٥) بدائع الزهور ٢٩٥.

(٦) البداية والنهاية ١٩٦ ـ بدائع الزهور ٢٩٦ ـ كنز الدرر ٣٣ ـ النجوم الزاهرة ٣٧٨ ـ أبو شامة ١٩٦.

(٧) السلوك ٤٠٥.

(٨) السلوك ٤٠٥ ـ المختصر ١٩٢ ـ النجوم الزاهرة ٤١ ـ المختصر ١٩٢ ـ تحفة الناظرين ١٧٥ ـ العيني ١٤٤ العمر عشرون سنة.

سنه[١]. وقام بأمور الدولة الأمير سيف الدين قطز وفارس الدين أقطاي بقيادة الجيش[٢].

دار صراع بين المماليك على السلطة، فقد اعتقل قطز الأمير سنجر الحلبي لأنه كان يطمع في الحكم وذلك نهار الجمعة ١٠ ربيع آخر ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م[٣]. وتمرد من جديد الأمير أيبك الحلبي الذي كان قد تراجع عن تمرده السابق، ولم ينجح في تمرده الجديد فقد سقط قتيلاً عن جواده[٤].

سئم المماليك من الوضع المتردي الذي آلت إليه البلاد باستلام علي بن المعز السلطة، فراسل بعضهم الملك الأيوبي في الكرك المغيث عمر وشجعوه على امتلاك مصر عندما يصل إلى حدودها[٥]. وقد لجأ إليه البحرية الذين كانوا في كنف الملك الناصر يوسف في دمشق لخلاف معه وذلك في شوال. فرحب بهم وعرضوا عليه المساعدة العسكرية للسيطرة على مصر.

استجاب لطلبهم وزحف نحو مصر. بلغ الخبر الأمير قطز فسير جيشاً إلى الصالحية[٦] ودارت المعركة نهار السبت ١٥ ذي القعدة انهزم فيها المغيث ومن معه من البحرية[٧] وأسر عدد من البحرية منهم الأمير قلاوون الذي كفله الأمير شرف الدين قيراي وهو استادار السلطان، ثم أطلق سراحه فاختبأ ولاذ بالفرار ولجأ إلى الكرك، أما بقية الأمراء الأسرى فقد أمر قطز بضرب أعناقهم[٨]. وفر من المعركة بيبرس البندقداري[٩]. وعاد المغيث بشرذمة قليلة من جيشه إلى الكرك وقد استولى المصريون على معسكره. وسار من تبقى من

---

(١) السلوك ٤٠٥ ـ بدائع الزهور ٢٩٧.
(٢) السلوك ٤٠٥ ـ العيني ١٤٤ ـ بدائع الزهور ٢٩٧ ـ النجوم الزاهرة ص ٤٢ جـ ٧.
(٣) السلوك ٤٠٥ ـ النجوم الزاهرة ـ ٤٢ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٨.
(٤) السلوك ٤٠٥ ـ النجوم الزاهرة ٤٢ ـ جـ ٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٨.
(٥) السلوك ٤١١ ـ العيني ١٨١ ـ المختصر ١٩٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٠ و ٨٤.
(٦) العيني ص ١٥٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٢.
(٧) العيني ١٥٧ ـ السلوك ٤٠٦ ـ النجوم الزاهرة ٤٥ جـ ٧ ـ المختصر ١٩٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٢ و ٩٠.
(٨) السلوك ٤٠٦ ـ النجوم الزاهرة ٤٦ ـ ٧٥.
(٩) السلوك ٤٠٦ ـ العيني ١٥٧ ـ النجوم الزاهرة ٤٦ ـ المختصر ١٩٣.

البحرية نحو الغور واتفقوا مع الشهروزية القادمين من الشرق[١].

بعد النصر الذي أحرزه قطز في الصالحية عاد إلى القاهرة واعتقل الأمراء الذين راسلوا المغيث منهم عز الدين أيبك الرومي وسيف الدين بلبان الكافوري وبدر الدين يلغمان وغيرهم وأمر بضرب أعناقهم وصادر أملاكهم في ١٦ ربيع الأول ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[٢].

بلغ الملك الناصر اتفاق البحرية مع الشهروزية فخاف من أن يهاجموا بلاده ويعيثوا فيها فساداً، فأرسل حملة إلى الأغوار انهزمت. غضب وقاد حملة ثانية بنفسه هزمهم وشتت شملهم. لجأ البحرية إلى الكرك حيث الملك المغيث والشهروزية بلغ الناصر لجوءهم إلى المغيث الذي تقوى بهم وسار يريد دمشق، التقى الجيشان في أريحا. ودارت معركة انهزم فيها المغيث الذي عاد إدراجه إلى الكرك[٣]. وسار الناصر إلى القدس فأقام أياماً ثم توجه إلى زيزاء[٤] وخيم على بركتها ستة أشهر[٥]. والرسل تتردد ـ ومنهم القطبية ابنة الملك المسعود ـ بينه وبين المغيث إلى أن تم الاتفاق على أن يسلم المغيث البحرية إلى الناصر وأن يبعد الشهروزية من منطقة نفوذه[٦]. وبناء على الاتفاق اعتقل المغيث بعض أمراء البحرية وسلمهم إلى الناصر الذي سجنهم في قلعة حلب. ونجا الأميران بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي، فقد تواريا عن الأنظار، فقد أصبحا مطلوبين من الناصر والمغيث وقطز فقاسيا مرارة العيش حتى أنهما كانا يحتاجان القوت فلم يجداه[٧].

---

(١) الشهروزية أكراد من شهروز في كردستان، فروا من معسكر هولاكو وعددهم حوالي ٣٠٠٠ مع عائلاتهم استخدمهم الملك الناصر ثم خاف منهم فلجأوا إلى الكرك ودخلوا في خدمة المغيث عمر السلوك ٤١١.

(٢) السلوك ٤١١ ـ ذيل مرآة الجنان ٩٠.

(٣) السلوك ٤١٤ ـ المختصر ١٩٨.

(٤) المختصر ١٩٨ وزيزاء قرية من قرى البلقاء.

(٥) السلوك ٤١٤ ـ المختصر ١٩٨.

(٦) السلوك ٤١٤ ـ المختصر ١٩٨.

(٧) العيني ١٨٢ ـ المختصر ١٩٨.

الفصل الخامس

المغول واجتياح العالم الإسلامي

في الوقت الذي كان الصراع على أشده بين الأيوبيين والمماليك تعرض العالم الإسلامي الشرقي لموجة عاتية من جحافل المغول الذين دمروا مراكز الحضارة فيه. ففي كانون الثاني ١٢٥٦م/ ٦٥٦هـ اجتاز نهر جيحون جيش مغولي كبير بقيادة هولاكو[١] كان هولاكو متعلماً ملماً بالفلسفة والكيمياء وبوذياً. كان هدفه الاستيلاء على مركز الحشاشين في بلاد فارس لما يشكلونه من خطر على قيام دولته في آسيا الوسطى وكانوا قد اغتالوا جفتاي بن جنكيز خان. وله هدف آخر هو احتلال بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية مع بلاد الشام.

أعد هولاكو للحملة عدتها، أصلح الطرقات عبر تركستان وفارس، شيد الجسور، جهز العربات اللازمة لحمل أدوات الحصار، حمى المراعي حتى تنمو الأعشاب إعلافاً للخيل، واصطحب معه أكثر من ألف رام من الرماة الصينيين المهرة في قذف السهام. وكان قد أرسل قبل ثلاث سنوات جيشاً بقيادة كتبغا النسطوري أقرب المقربين إليه لتمهيد الطرق. واستطاع كتبغا إعادة سلطة المغول إلى فارس واستولى على معاقل للحشاشين قبل وصول هولاكو[٢].

تحرك هولاكو ببطء نحو بلاد فارس، استولى على ديموند وعباس آباد حتى وصل إلى مناطق نفوذ الحشاشين وضرب الحصار على قلعة الموت

---

(١) ابن العبري ٤٦٠.

(٢) الحروب الصليبية ٥١٦.

مركزهم الرئيس، فاضطر ركن الدين خورشاه إلى التسليم، وذهب بنفسه إلى مركز هولاكو في كانون الأول ١٢٥٦ معلناً خضوعه[١]. ولكت قائد القلعة رفض أمر التسليم فاستولى عليها هولاكو عنوة[٢].

ثم فتح جميع حصونهم وهي تزيد على خمسين حصناً باستثناء حصنين صمدا في وجهه وهما جردوه ولمبوذر[٣]. ورحل ركن الدين إلى قراقورم لمقابلة الخان منكو رفض الخان مقابلته وأرسل إليه يطلب منه العودة إلى بلاده ليحمل الحصنين على الاستسلام. غير أنه لقي مصرعه أثناء عودته[٤]. ثم سقط الحصنان بيد هولاكو. وقرر استئصال الحشاشين، وأرسل جماعة من أقارب ركن الدين ـ كان قد أسرهم ـ إلى سالقان خاتون ابنة جفتاي للانتقام لأبيها، واستدعى آخرين من الحشاشين بحجة إحصائهم وأمر بقتل اثني عشر ألفاً منهم. ومع نهاية ١٢٥٧م/ ٦٥٥هـ لم يبق من الحشاشين سوى المعتصمين في الجبال. أما حشاشو بلاد الشام فكانوا بمنأى عن المغول[٥].

سقوط بغداد

عندما كان هولاكو يقاتل الحشاشين طلب مساعدة عسكرية من الخليفة العباسي المستعصم بالله[٦]. استجاب الخليفة للطلب. لكن بعض الأمراء نصحوه بعدم ذلك، وأنه يحتال عليهم لإخلاء بغداد من الجيش فيسهل عليه احتلالها[٧]. عندها تقاعس الخليفة ولم يلب الطلب.

ولما قضى على الحشاشين أرسل ثانية إلى الخليفة يعابته على تقاعسه،

---

(١) ابن العبري ٤٦٤.

(٢) ابن العبري ٤٦٤.

(٣) ابن العبري ٤٦٤.

(٤) ابن العبري ٤٦٥.

(٥) ابن العبري ٤٦٥.

(٦) المستعصم بالله عبد الله بن المنصور بن أحمد الذي يرجع نسبه إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ولد نهار السبت ١١ شوال ٦٠٩ هـ وبويع بالخلافة في ٢٠ جمادي الأولى ٦٤٠ هـ قتله المغول في ١٤ صفر ٦٥٦ هـ ـ السلوك ٤١٢ ـ العيني ١٤.

(٧) ابن العبري ص ٤٧١.

فلجأ الخليفة إلى استشارة معاونيه لمعالجة الوضع الناشيء عن اقتراب المغول من العراق.

كان بلاط بغداد تمزقه الخلافات[1] بين وزيره الشيعي محمد بن العلقمي، وكاتبه الدويدار السني أيبك الذي حظي بمساعدة ولي العهد. كل واحد كان له تصور للأوضاع.

كانت بغداد محصنة وبوسع الخليفة حشد جيش من الفرسان تعداده مئة وعشرون ألف.

اقتنع الخليفة برأي الوزير ابن العلقمي[2] الذي أشار بمداراة هولاكو «لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه»[3]. وعمل بالمشورة فأمر بإعداد ما سيرسله إلى هولاكو من الجواهر والثياب والحلى والجواري والبغال. فرأى الكاتب أيبك أن المبلغ كبير، وأن الوزير يريد مصانعة هولاكو: «إنما يريد شأن نفسه مع التتار وهو يروم تسليمنا فلا نمكنه من ذلك». عندئذ خفض الخليفة الهدية وبرر ذلك بأن الوزير ابن العلقمي يريد أن يثأر للشيعة الذين قتلتهم السنة الماضية الحكومة في الكرخ ببغداد عندما اختلفوا مع السنة[4].

احتقر هولاكو الهدية ورفضها وأثار ذلك غضبه، فطلب حضور الخليفة بنفسه أو إرسال واحد من ثلاثة الوزير ابن العلقمي أو الكاتب أو سليمان شاه. ورفض الثلاثة ذلك فسير إليه الخليفة رجلين من الطبقة الثانية في الحكم ابن الجوزي وابن محيي الدين، ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً[5]، لأن

---

(١) الخلاف كان بين الشيعة في الكرخ والسنة في الرصافة، حدث نزاع بينهم، اشتكى سكان باب البصرة السنة إلى الدوادار وإلى ابن الخليفة أبي بكر فأذنا للجيش بالهجوم على الكرخ مركز الشيعة ودخل الجيش الكرخ وأمضى قتلاً ونهباً وارتكب المحرمات فحنق الوزير ابن العلقمي على هذه التصرفات وأضمر الحقد وقرر الانتقام. النجوم الزاهرة ٤٨ جـ ٧ ـ البداية والنهاية ١٩٦.

(٢) هو مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي البغدادي تولى الوزارة ١٤ سنة كان على خلاف مع ابن الخليفة والكاتب توفي في رجب ٦٥٦ هـ الذهبي ٢٢٧.

(٣) العيني ١٧٢ ـ العبري ٤٧١ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤٨ ـ البداية والنهاية ص ٢٠٠.

(٤) ابن العبري ٤٧٢ ـ العيني ١٧٢ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٣٧.

(٥) ابن العبري ٤٧٢ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٠ ـ المختصر ص ١٩٤.

السياسة التي كان يهدف إليها هولاكو هي السيطرة على الخلافة الإسلامية واحتلال بغداد. ورفض الخليفة الرضوخ لهذه السياسة مما أدى إلى ازياد نفوذ الكاتب الذي تولى قيادة الجيش.

ترك هولاكو همدان في نهاية ١٢٥٧م/ ٦٥٥هـ متجهاً نحو بغداد[١] بثلاثة جيوش الجيش الأول يقوده بايجو نوين عبر نهر دجلة قرب الموصل وسار جنوباً على الضفة الغربية للنهر باتجاه بغداد. وسار الجيش الثاني بقيادة كتبغا ـ ومعه الجناح الأيسر ـ نحو السهل شرق بغداد. وزحف هولاكو ومعه بقية الجيش على طريق حلوان مخترقاً كرمان شاه.

خرج أيبك من بغداد إلى بعقوبا وخيم أمام الجيش المغولي، وهناك بلغه أن جيشاً يتقدم جنوباً على الضفة الغربية لنهر دجلة، فغادر بعقوبا واتجه نحو الأنبار في ١١ كانون الثاني ١٢٥٨ والتقى مع المغول وهزمهم بادىء الأمر. وأثناء تراجعهم وصلت إليهم الامدادات بقيادة بايجو نوين فكروا من جديد وواقعوا الهزيمة بالجيش العباسي الذي قتل معظم أفراده ولاذ من بقي على قيد الحياة بالبادية[٢]. أما القائد أيبك الكاتب فعاد مهزوماً إلى بغداد[٣].

وفي منتصف محرم ٦٥٦هـ/١٨ كانون الثاني ١٢٥٨م وصل هولاكو إلى باب بغداد الشرقي بمئتي ألف جندي وضرب الحصار عليها[٤] وكان جيش بغداد حوالي عشرة آلاف فارس[٥]. وخلال يوم بني هولاكو سوراً عالياً. ووصل إلى الجانب الغربي الجيش الزاحف على ضفاف دجلة وبنى سوراً كذلك وأقام خندقاً[٦]. وشن المغول هجوماً شاملاً على المدينة من كل الجهات في ١٩ محرم/ ٢٢ كانون الثاني بعد إقامة جسر على النهر. اشتد الضغط وضعفت المقاومة، فاضطر الخليفة إلى إرسال صاحب ديوانه وابن

---

(١) العيني ١٧١.
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤٩ ـ المختصر ١٩٤ ـ الذهبي ٢٢٦.
(٣) المختصر ص ١٩٤ ـ ابن العبري ص ٤٧٣.
(٤) العيني ١٧١ ـ ابن العبري ٤٧٣ ـ البداية والنهاية ٢٠٠ ـ المختصر ١٩٤.
(٥) البداية والنهاية ٢٠١ ـ المختصر ١٩٤.
(٦) العيني ١٦٨ و ١٧١ ـ البداية والنهاية ٢٠٠.

درنوس لمقابلة هولاكو[١]. وسأل هولاكو: لما لم يأت الدويدار وسليمان شاه؟ عندئذ أرسل الخيفة وزيره ابن العلقمي على اعتبار أنه أكبر أعضاء الحكومة سناً[٢] ومعه البطريرك النسطوري[٣] للتفاوض مع هولاكو، فرفض مقابلتهما. وعاد الوزير مع نصير الدين الطوسي إلى داخل المدينة[٤].

اشتد القتال عند البرج العجمي. ومن الجانب الغربي هاجم بوقاتيمور وسونجات نوين وبايجو نوين من جانب المستشفى العضدي. وفي نهاية محرم/ شباط تداعى السور العجمي (في الجانب الشرقي) ودخل المغول مدينة بغداد[٥] وكانت لأول مرة في تاريخها يدخلها محتل غريب منذ تأسيسها ١٤٥هـ.

أمر هولاكو أن يأتي إليه الكاتب أيبك الدويدار وسليمان شاه ـ وخيّر الخليفة بالبقاء أو الخروج[٦] وذهب الكاتب وسليمان شاه لمقابلة هولاكو بصحبة وجهاء بغداد.

وأثناء عودته إلى داخل المدينة قتل الكاتب[٧] وأرسل سكان بغداد شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني لأخذ الأمان لهم[٨].

وأخيراً خرج الخليفة ومثل بين يدي هولاكو ومعه أولاده وأهل بيته في ٤ صفر ٦٥٦/ شباط ١٢٥٨ ودخل هولاكو المدينة، ذهب إلى دار الخليفة وأمر بإحضاره، صادر منه ما كان قد خبأ من جواهر ونفائس وزعها على كبار رجال جيشه[٩].

---

(١) ابن العبري ٤٧٣.
(٢) العيني ١٧٢.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية ٥٢٠ جـ ٣ ـ المختصر ١٩٤ يذكر الوزير فقط.
(٤) العيني ١٧٢ ـ المختصر ١٩٤ يذكر أن الوزير استوثق لنفسه.
(٥) مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٣٧ ـ المختصر ١٩٤ ـ ابن العبري ٤٧٤ ـ أبو شامة ١٩٨.
(٦) ابن العبري ٤٧٤.
(٧) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٠.
(٨) ابن العبري ص ٤٧٢.
(٩) ابن العبري ص ٤٧٢.

وعمل المغول على قتل سكان بغداد ونهبها وسلبها[1]. استمرت المذابح أربعين يوماً فقتل من استسلم من الجيش وكذلك من بقي يقاتل والنساء والأطفال والمدنيين[2]، حتى هلك من سكان بغداد ما بين الثمانماية ألف والمليون نفس[3]. ونجا من المذبحة عدد قليل من الذين اختبأوا في سراديب المدينة وكذلك الغلمان والفتيات اللواتي تحولن إلى غانيات. والمسيحيون الذين لاذوا بالكنائس بناء على أمر طقز خاتون واليهود، ومن التجأ إلى دار الوزير ابن العلقمي[4].

بقيت الجثث بدون دفن حتى تعفنت ونتنت روائحها، عندها أمر هولاكو الجيش بمغادرة المدينة في مطلع نيسان ١٢٥٨م/ربيع ثاني ٦٥٦هـ تجنباً للأوبئة. كان بين القتلى استادار الخليفة محيي الدين بن الجوزي والكاتب أيبك وشهاب الدين وسليمان شاه[5]. وقتل هولاكو بانجوين بعد أن اكتشف مراسلة له مع الخليفة[6].

بقي الخليفة رهن اعتقال هولاكو، وبعد أن صادر منه الجواهر والنفائس أمر بقتله. وقد شجعه على ذلك الوزير ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي الوزير لديه[7]. وقتل معه ابنه الأوسط مع ستة أشخاص من الخصيان في الليل. وقتل ابنه الكبير ومعه خواصه على باب كلواذي نهار الأربعاء ١٤ صفر ٦٥٦هـ/ شباط ١٢٥٨[8]م.

بعد أن سلب هولاكو كنوز المسلمين التي جمعوها في بغداد طيلة

---

(١) النجوم الزاهرة ص ٥٠.

(٢) السلوك ٤١٠ ـ العيني ١٧٠ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٥ ـ النجوم الزاهرة ٥٠ ـ البداية والنهاية ٢٠١ ـ المختصر ١٩٤.

(٣) الذهبي ٢٨٦ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٣٧ ـ العيني ١٧٤ ـ النجوم الزاهرة ٥٠ ـ البداية والنهاية ٢٠٢.

(٤) العيني ١٧٤ ـ البداية والنهاية ٢٠٢.

(٥) العيني ١٧٥ ـ البداية والنهاية ٢٠٢ ـ المختصر ١٩٤ ويضيف: بين القتلى الفقهاء.

(٦) الذهبي ٢٢٦.

(٧) العيني ١٧٣ ـ البداية والنهاية ٢٠١.

(٨) البداية والنهاية ٢٠١ ـ ابن العبري ٤٧٥.

خمسة قرون، وأرسل قسماً منها إلى أخيه منكو، غادر العاصمة المدمرة في جمادى الأولى ٦٥٦هـ/ حزيران ١٢٥٨ إلى قاعدته في همدان[١]. وعين على شرطتها ابن العلقمي الذي أخضع لمراقبة شديدة من الموظفين المغول وفوض أمورها إلى الأمير علي بهادور[٢].

وحظي بطريرك النساطرة بمعاملة جيدة فمنحه أحد قصور الخليفة ليكون مقراً له وكنيسة لقاء تعامله معه[٣].

وهكذا سقطت بغداد لأول مرة في تاريخها بيد الغرباء. وسقطت معها الخلافة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون ١٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م[٤] «خمسماية وأربع وعشرون سنة». صحيح أنا فقدت قوتها المادية العسكرية ولكنها كانت تحتفظ بنفوذها الأدبي في العالم الإسلامي.

سر النصارى كثيراً بسقوطها واعتبروه سقوط بابل مرة ثانية واعتبروا هولاكو وطقز خاتون زوجته أدوات للانتقام من أعداء المسيح[٥].

المغول في بلاد الشام

بعد احتلال بغداد وجه هولاكو اهتمامه لاجتياح بلاد الشام، فأقدم على تقوية نفوذه في منطقة الجزيرة، وكان يريد الانتقام من الأمير الأيوبي الكامل محمد أمير ميافارقين الذي تحداه ورفض سيادة المغول وصلب قسيساً يعقوبياً أرسله إليه هولاكو لهذا الأمر[٦].

هاجم هولاكو مدينة آمد واحتلها ثم اتبعها بحران[٧] واستولى على منطقة

---

(١) العيني ١٧٦ ـ ابن العبري ٤٧٥ ـ البداية والنهاية ٢٠٣.
(٢) العيني ١٧٦ ـ البداية والنهاية ٢٠٣.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية ٥٢٢.
(٤) مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٣٩.
(٥) تاريخ الحروب الصليبية٥٢٢.
(٦) ابن العبري ٤٨٣ ويذكر اسم الملك الأشرف ـ المختصر ص ١٩٦ لم يذكر عملية الصلب.
(٧) العيني ٢١٨ ـ السلوك ٤١٩ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٤.

الجزيرة[١]. وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة ابنه بشموت أو بشموط لاحتلال ميافارقين[٢] واستولى عليها بعد حصار دام سنتين سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م[٣] بعد قتال شديد. وانتقم من سكانها المسلمين فقتل عدداً كبيراً منهم، ولم يتعرض للمسيحيين. وأسر الملك الكامل وجرى تعذيبه، فكان المغول يرغمونه على أكل لحمه حتى مات[٤] وحملوا رأسه على رمح إلى دمشق. وبعد هزيمتهم في عين جالوت، أخذ الرأس ودفن بمشهد الحسين عليه السلام بباب الفراديس[٥].

بعد احتلاله ميافارقين توجه هولاكو بجيش بلغ عدده جوالي ٤٠٠ ألف[٦] لاحتلال شمال غرب سوريا وهدفه مدينة حلب، نظم جيشه فولى على المقدمة كتبغا وعلى الميمنة بيجو وعلى الميسرة سنجق وتولى هو القلب، وأرسل ابنه بشموت إلى بلاد الشام وأمره بعبور الفرات فوصل إلى نهر الجوز وتل باشر بجيش كبير، واتجه نحو حلب[٧] وزحف بجيشه غرباً فاستولى على نصيبين والرها حتى البيرة[٨] وعبر الفرات، تصدت له سروج فنهبها وأباد سكانها[٩].

وأرسل كتاباً إلى المعظم الأيوبي نائب السلطان وعمه[١٠] في حلب يتهدده ويطلب منه الاستسلام رفض المعظم التهديد وقال للرسول: ليس لكم عندنا إلا السيف[١١].

---

(١) العيني ٢١٨ ـ النجوم الزاهرة ٧٤.
(٢) المختصر ص ١٩٩ ـ النجوم الزاهرة ٧٣ ـ السلوك ٤١٤ ـ البداية والنهاية ٢١٥.
(٣) المختصر ٢٠٣.
(٤) تاريخ الحروب الصليبية ٥٢٤ ـ ابن العبري ٤٨٣ يشير فقط إلى أخذ المدينة.
(٥) المختصر ٢٠٣.
(٦) ابن العبري ٤٨٣.
(٧) النجوم الزاهرة ص ٥٤.
(٨) العيني ٢٢٩ ـ ابن العبري ٤٨٦ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٤ يشير فقط إلى احتلال المدن ـ المختصر ١٩٩.
(٩) ابن العبري ص ٤٨٦.
(١٠) المختصر ص ١٩٩.
(١١) العيني ٢٣٠ ـ المختصر ٢٠١ ـ الذهبي ٢٤١.

وفي مطلع سنة ١٢٦٠م/٢ صفر ٦٥٨هـ هاجم هولاكو مدينة حلب من جميع جهاتها وركز حولها أربعاً وعشرين منجنيقاً أخذت ترمي أسوارها[١].

استبسلت المدينة في الدفاع بقيادة المعظم ورفضت حاميتها الاستسلام، وشدد الهجوم عليها خاصة من ناحية حمام حمدان خلف القلعة عند باب العراق[٢]. ونهار الأحد ٩ صفر ٢٣ ك ٢ استطاع المغول اقتحام المدينة واعملوا السيف في رقاب سكانها حتى مشى جيشهم على الجثث وأسروا حوالي مئة ألف واستمرت أعمال القتل والسلب حتى نهار الجمعة ١٤ صفر حيث أمر هولاكو برفع السيف، ونجا من سكانها من لجأ إلى دور بعض الفقهاء، شهاب الدين بن عمرون وبازياد وعلم الدين قيصر وكنيسة اليهود وقد سلم منهم حوالي ٤٥٠ ألف[٣] ولم يتعرضوا للمسيحيين بسوء. وقد هدم هولاكو سور المدينة وجامعها ومساجدها وقطع أشجار بساتينها[٤]. وظلت القلعة تقاوم أربعة أسابيع بقيادة المعظم. وأخيراً سقطت وقد أبدى هولاكو لأول مرة كثيراً من الرحمة، فقد أبقى على حياة المعظم وحاشيته لبسالتهم[٥] وبعد أن أضحت حلب مدمرة كأختها بغداد عين الأشرف الأيوبي ملك حمص والياً عليها مكافأة له لانضمامه إليه قبل بضعة أشهر[٦]، وجعل إلى جانبه مستشارين منهم عماد الدين القزويني عينه نائباً عنه في المدينة، وكذلك قوة مفعوليه لحفظ الأمن[٧].

بعد سيطرته على حلب توجه نحو أنطاكية، في الطريق قاومه حصن

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٣٤٩ ـ مرآة الجنان ١٤٨ جـ ٤ ـ الذهبي ٢٤١ العدد ٢٠ المختصر ٢٠١ لم يذكر العدد.

(٢) العيني ٢٣١ ـ المختصر ٢٠٠ النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٦ ـ السلوك ٤٢٢ ـ مرآة الجنان ١٤٨ ـ البداية والنهاية ٢١٩ ـ الذهبي ٢٤١ ـ شفاء القلوب ٤١٧.

(٣) العيني ٢٣١ ـ المختصر ٢٠١ يذكر العدد ٥٠ ألف ـ الذهبي ٢٤١ ـ أبو شامة ٢٠٣ يشير إلى سقوط المدينة.

(٤) العيني ٢٣١ ـ السلوك ٤٢٢ ـ شفاء القلوب ٤١٧.

(٥) السلوك ٤٢٢ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٤٨ ـ البداية والنهاية ٢١٨ ـ من تاريخ سوريا ٢٧٥.

(٦) السلوك ٤٢٣.

(٧) من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٧٦.

حارم استولى عليه وأجرى فيه حسب عادته مذبحة رهيبة، ثم تقدم إلى ضواحي أنطاكية، فقدم عليه مسالماً ملك أرمينيا وصهره أمير أنطاكية وأعلنا له الولاء والطاعة، فمنح هولاكو ملك أرمينيا بعض الغنائم التي سلبها من حلب وأمر السلاجقة بإعادة ممتلكات قيليقية التي استولوا عليها إليه. كما أعطى أمير أنطاكية بعض المدن والحصون التي كان السلطان صلاح الدين قد حررها من الصليبيين ومنها اللاذقية[1] وتابع المغول سيرهم نحو دمشق وفي طريقهم استسلمت حماة في شباط ١٢٦٠م صفر ٦٥٨هـ ـ دون قتال إذ أرسلت المدينة وفداً منها قدم مفاتيحها لهولاكو طالباً الأمان[2].

احتلال دمشق

بعد احتلال بغداد وفد على هولاكو الملك العزيز ابن الملك الناصر يوسف صاحب دمشق من قبل والده يصحبه زين الدين الحافظي[3] ليعلن الخضوع والطاعة له وهو محمل بالهدايا والتحف وعاد العزيز بعد المقابلة يحمل كتاباً من هولاكو يهدد فيه ويتوعد الملك الناصر[4].

وكان الملك الناصر يوسف يأمل أن وجود ابنه عند هولاكو يبعد الخطر عن بلاده، ولكن بعد الهجوم على حلب تبين له عقم سياسته فحسد جيشاً كبيراً يقدر عدده بحوالي مئة ألف جندي في برزه[5]، وعندما بلغه سقوط حلب وتقدم المغول باتجاه دمشق. تفرق الجيش واضطر إلى مغادرة المدينة إلى غزة[6] تاركاً دمشق مجردة من وسائل الدفاع فهجرها سكانها وقد قصد كثير منهم مصر وكان فصل الشتاء فهلك منهم أعداد في الطرقات، فأرسل الملك الناصر كمال الدين بن العديم إلى مصر يستنجد بحكامها[7].

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٢٦.

(٢) المختصر ٢٠١ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٤٦ ـ البداية والنهاية ٢١٩ ـ النجوم الزاهرة ص ٧٦.

(٣) المختصر ١٩٩.

(٤) السلوك ٤١٥ و ٤١٦ نصف الكتاب.

(٥) السلوك ٤١٩ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٤٦.

(٦) الذهبي ٢٤٢ ـ المختصر ٢٠١ ـ أبو شامة ٢٠٣.

(٧) السلوك ٤١٦.

ثم غير اتجاهه فأرسل حريمه إلى الكرك[١] لأنه خشي أن ينقلب عليه المصريون فتوقف في قطيا[٢].

وبما أن دمشق أضحت بلا مقاومة حذا من بقي من سكانها حذو حماة فذهب وفد من أعيانها قابل هولاكو معلنين الخضوع طالبين الأمان فأجابهم إلى مطالبهم[٣].

لم يتسن لهولاكو دخول دمشق بنفسه، فبعد الانتصارات التي أحرزها وصلته أنباء وفاة أخيه الخان منجوقان، فترك قيادة المغول في بلاد الشام إلى كتبغا[٤] وعاد إلى عاصمتهم قرة قورهم[٥].

ودخل كتبغا دمشق في آذار ١٢٦٠م/ربيع الأول ٦٥٦هـ على رأس جيش مغولي يصحبه ملك أرمينيا وأمير أنطاكية. وكانت المرة الأولى التي دخلها غريب منذ فتحها بعد معركة اليرموك ٦٣٦م/ ١٤هـ. وسار موكب الأمراء المسيحيين في طرقات المدينة[٦]. وتطاول النصارى على المسلمين فأحضروا فرماناً من هولاكو يشير إلى اعتناء المسيحيين بأمر دينهم، فشربوا الخمر علانية في رمضان وسكبوه على أثواب المسلمين وعلى أبواب المساجد، وأصروا وألزموا المسلمين على الوقوف عند مرورهم يحملون الصليب، وأخذوا يجاهرون بذم الدين الإسلامي، ورشوا الخمر على باب مسجد الحجر الصغير والكبير فشكا ذلك المسلمون إلى أيل سبان الذي أهانهم وضربهم، ونزل بنفسه إلى الكنائس وحضر القداديس وعظم قساوسة النصارى[٧]، فقد كان كتبغا نفسه نصرانياً[٨] يساعد أبناء دينه في البلاد

---

(١) السلوك ٤١٦.

(٢) المختصر ٢٠٤ ـ شفاء القلوب ٤١٧ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٧.

(٣) مرآة الجنان ١٤٩ ـ النجوم الزاهرة ص ٧٦ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٤٩ ـ أبو شامة ٢٠٣.

(٤) مرآة الجنان ١٤٩.

(٥) ابن العبري ص ٤٨٨.

(٦) الحروب الصليبية ٥٢٨.

(٧) السلوك ٤٢٥ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٤٩ ـ البداية والنهاية ٢١٩ ـ الذهبي ٢٤٢ يذكر: ألزموا الناس القيام للصليب في ٢٢ رمضان.

(٨) الذهبي ٢٤٨.

الإسلامية التي احتلها المغول بشكل كان يثير مشاعر المسلمين ويؤجج حقدهم على النصارى.

بقيت قلعة دمشق تقاوم المغول بضعة أسابيع بقيادة بدر الدين بن تزل. وأخيراً سقطت بيد كتبغا وأمر بقتل حاميتها في مرج برغوث حيث كان يقيم وهناك وفد عليه رسل الصليبيين من الساحل يحملون إليه الهدايا، ثم وصل الأشرف صاحب حمص في ٦ نيسان ١٢٦٠م/ربيع الثاني ٦٥٨هـ نائباً له على دمشق فامتثل كتبغا لذلك[١].

وهكذا سقطت مدن العرب الكبرى في المشرق الإسلامي بيد المغول بغداد وحلب ودمشق، وأدى ذلك إلى انتعاش المسيحيين في سوريا خاصة مما دفع المسلمين إلى الاستعداد للانتقام.

بعد سقوط دمشق أرسل كتبغا فرقاً من جيشه احتلت نابلس وحوران والصلت والخليل وغزة[٢] ولم تصل إلى القدس. وأظهر الصليبيون الليونة مع المغول وتجنبوا الاحتكاك بهم. إلا أن يليان كونت صيدا والشقيف[٣] اعتقد أن الفرصة مناسبة للإغارة على سهل البقاع الذي كان يسيطر عليه المغول، ورد كتبغا على هذا الهجوم الذي هدد أمن المناطق الخاضعة لنفوذه فأرسل ابن أخته مع فرقة لمعاقبة الصليبيين فكمنوا له وقتلوه[٤].

غضب كتبغا وصمم على الانتقام فأرسل جيشاً إلى صيدا دمر المدينة، ثم أغار يوحنا إبلين حاكم بيروت مع الداوية على الجليل فاضطرت القوات المغولية إلى ردعهم بعنف وشدة. وقد أسرت ٣٠٠ صليبياً[٥].

---

(١) العيني ٢٣٧ ـ البداية والنهاية ٢١٩ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٤٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦٠ ـ أبو شامة ٢٠٤ يشير إلى سقوط القلعة.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٧ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٤٨ ـ شفاء القلوب ٤١٧ ـ كنز الدرر ص ٤٧ ـ الذهبي ٢٤٢ ـ أبو شامة ٢٠٤.

(٣) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٢٩.

(٤) الحروب الصليبية ٥٣٠ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦٠ يشير إلى أخذ صيدا.

(٥) الحروب الصليبية ٥٣٠ ـ أبو شامة ٢٠٧.

وعلى أثر الصراع على العرش في موطن المغول الأصلي اضطر هولاكو أن يسحب قسماً من جيشه بعد احتلال دمشق، وأضحى نائبه كتبغا يحكم سوريا بجيش ضئيل، وأثار توغل المغول في فلسطين وشنهم الغارات حتى الصلت إلى إثارة الدولة الإسلامية في مصر، التي أخذت تستعد للحرب مع الغزاة.

في هذه الأثناء بقي الملك الناصر يوسف متحيراً في قطيا، فعزم على التوجه إلى الحجاز ولكن طبردار حسين الكردي زين له الرحيل إلى المغول وخدعه، فأخذ برأيه ورحل إلى زيزا[١] وسار الكردي إلى كتبغا وأرشده إلى مكان وجود الملك الناصر فأرسل فرقة اعتقلته وأحضرته إلى عجلون، وكانت خارج نفوذ المغول الذين أمروا حاميتها بالتسليم[٢]، فأرسله كتبغا إلى هولاكو. ولما وصل الناصر إلى حماة وبها الأشرف صاحب حمص استقبله ثم رحل إلى حلب وهناك أنشد

سقى حلب الشهباء في كل بقعة   سحائب غيث نووها ماء أدمعي

ولما بعد عن حلب أنشد قصيدة تائية منها:

يعز علينا أن نرى ربعكم يبكي   وكانت به آيات حسنكم تتلا

ولي أسوة مع آل بيت محمد   فبعضهم أسرى وبعضهم قتلا

وأخيراً وصل الملك الناصر إلى هولاكو في تبريز، استقبله ووعده برد ملكه إليه. ولما بلغه نبأ هزيمة جيشه بعين جالوت ومقتل صهره ونائبه كتبغا، وانكسار جيشه بعد ذلك في حمص وبخه، فقال له الناصر: كيف يحكم إنسان الشام وهو في تبريز، عندها رماه هولاكو بنشاب مرتين فأرداه قتيلا[٣].

وهكذا انتهت حياة الملك الناصر يوسف الأيوبي.

عين جالوت

بعد كتاب التهديد الذي أرسله هولاكو إلى الملك الناصر مع ابنه العزيز

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٧ ـ المختصر ٢٠٤.
(٢) المختصر ص ٢٠٤ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٥٧.
(٣) المختصر ص ٢٠٤ ـ كنز الدرر ص ٥٩ ـ المختصر ٢٠٤ و ٢١١.

استنجد الناصر بالمماليك في مصر وأرسل لهذه المهمة الصاحب كمال الدين بن العديم[1] ولدى وصوله إلى القاهرة عقد الملك المنصور علي بن أيبك مجلساً حضره قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري والشيخ عز الدين بن عبد السلام[2]، وسئلا في أخذ الأموال العامة لإنفاقها على الجيش، فأفتى الشيخ عز الدين أنه إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الخوائص الذهب ونحوها من الزينة وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم[3].

اغتنم الأمير قطز هذه الفتوى وأخذ ينكر على الملك المنصور سوء تصرفه وكثرة مفاسده ويردد أنه لا بد من سلطان قاهر يقاتل العدو والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير الأمور[4]. وكانت أمه هي المدبرة لشؤون الدولة.

طمع قطز بالحكم وانتهز فرصة خروج الأمراء للصيد علم الدين سنجر وسيف الدين بهادر[5] والمعزية. فقبض على المنصور وأمه وأخيه قاقان واعتقلهم في قلعة الجبل نهار السبت ١٤ ذي القعدة ٦٥٧هـ/ واعتلى عرش مصر[6]، فقدم عليه الأمراء ينكرون هذا العمل فبرر موقفه هذا بحجة اقتراب المغول من مصر وإن الملك المنصور ضعيف، وكذلك الخوف من الملك

---

(١) العيني ٢٢٠ ـ السلوك ٤١٧ ـ النجوم الزاهرة ٧٢ ـ البداية والنهاية ٢١٥ جـ ٣ المختصر ١٩٩ وابن العديم قاضي القضاة عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد الحنفي ولد ٥٨٠ وتوفي ٦٦٠ ـ الذهبي ٢٦١.

(٢) النجوم الزاهرة ٧٢ ـ البداية والنهاية ٢١٥ ـ بدائع الزهور ٣٠١.

(٣) النجوم الزاهرة ٧٢ ـ البداية والنهاية ٢١٥ ـ السلوك ٤١٧ ـ بدائع الزهور ٣٠٢ ـ تحفة الناظرين ١٧٦.

(٤) السلوك ٤١٧ ـ العيني ٢٢٠ ـ بدائع الزهور ٣٠١ ـ النجوم الزاهرة ٥٤ و ٧٢.

(٥) السلوك ٤١٧ ـ البداية والنهاية ٢١٦ ـ النجوم الزاهرة ٧٢ ـ المختصر ١٩٩ ـ العيني ٢٢٠.

(٦) المختصر ١٩٩ ـ بدائع الزهور ٣٠٢ ـ البداية والنهاية ٢١٦ ـ النجوم الزاهرة ٧/٥٤ و ٧٢/٢ يشير إلى اعتقالهم.

الناصر صاحب دمشق، وإن البلاد بحاجة إلى حاكم قوي للوقوف بصلابة أمام هذه المخاطر[١]. وذكر ذلك لابن العديم[٢]. وقال: نجتمع على قتال التتار ولا يأتي ذلك بغير تلك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطة من شئتم[٣].

اقتنع الأمراء بقوله وانصرفوا عنه بعد أن أغدق عليهم.

بعد ذلك أرسل الملك المنصور وأخاه وأمه إلى دمياط وسجنهم في برج السلسلة ثم نفاهم إلى بلاد الأشكري[٤]. واعتقل الأمراء المعارضين منهم علم الدين سنجر وعز الدين أيدمر وسيف الدين الرد[٥] خال الملك المنصور علي، واستوثق من بقية الأمراء، ثم إستوزر الصاحب زين الدين بن الرفيع في ٥ ذي القعدة وأبقى على الأتابكية فارس الدين أقطاي الصغير وكلف الاثنين، بتجهيز الجيش وشكل جيشاً من الفرسان والرجالة من العرب بلغ عدده من أربعين إلى خمسين ألف مقاتل واستعد للحرب[٦].

وقام العلماء بجمع الأموال فبلغت ستماية ألف دينار[٧].

وسرت في مصر إشاعات بأن هولاكو أرسل نجدة إلى الملك الأيوبي الناصر. تخوف قطز من ذلك وأرسل كتاباً إلى الناصر مع برهان الدين بن الخضر وابن العديم يقسم له فيه بأن لا ينازعه الملك ولا يقاومه وأنه يعتبر نفسه نائباً: «وإن اخترتني خدمتك وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختار»[٨] فاطمأن الناصر إلى هذا القول. وكان ذلك قبل أن يتفرق عنه الجيش قبل وصول هولاكو إلى دمشق تآمر المماليك على قتل الملك

(١) السلوك ٤١٧ ـ المختصر ١٩٩ ـ النجوم الزاهرة ٧٣.

(٢) النجوم الزاهرة ٧٣.

(٣) السلوك ٤١٨.

(٤) السلوك ٤١٨ ـ بدائع الزهور ٣٠٢ ـ البداية والنهاية ٢١٦.

(٥) المختصر ١٩٩ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٣.

(٦) السلوك ٤١٨ ـ كنز الدرر ٤٨.

(٧) بدائع الزهور ٣٠٦ ـ تحفة الناظرين ١٧٦.

(٨) السلوك ٤١٨ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٣.

الناصر خاصة بعدما أخذ الأمير زين الدين الحافظي يثبط عزائم الناس وأنه يجب مداراة هولاكو والخضوع له فصاح به الأمير بيبرس البندقداري «أنتم سبب هلاك المسلمين»[1] فسار زين الدين إلى الناصر وشكا له ذلك. وعندما حل الظلام هجم المماليك على الناصر يبغون قتله وتنصيب شقيقه الظاهر علي، كان الملك في بستان فنجا وفر إلى قلعة دمشق، ثم سار إلى مخيم برزة حيث يتركز الجيش، فغادر بيبرس إلى غزة حيث الأمير نور الدين بدلان قائد الشهروزية الذي رحب به[2] واستأمن له عند الملك قطز فأمنه. ثم سار إلى مصر نهار السبت ١٢ ربيع الأول فأنزله قطز بدار الوزارة وأقطعة قليوب وأعمالها[3].

ومن حلب أرسل هولاكو كتاب تهديد إلى الملك قطز مع أربعة من رجاله يتهدده فيه[4].

لما قرأ قطز الكتاب استشار الأمراء في أمر الوفد المغولي، فاتفوا على قتلهم. ونهار الاثنين ٥ شعبان أمر الملك قطز بإحضار رسل هولاكو الأربعة وأمر بقتلهم على أبواب القاهرة، فقتل واحد بسوق الخيل تحت القلعة والثاني بباب زويلة والثالث بظاهر باب النصر والرابع في الريدانية وعلقت رؤوسهم على باب زويلة.

وأبقى على ولد صغير جعله من مماليكه[5].

أعلن الملك قطز النفير في مصر للجهاد في سبيل الله ـ جمع الأموال، دينار عن كل شخص وأجرة شهر من الأملاك والزكاة من التجار مقدماً ومن الأرض ثلث المال وأجرة شهر من الفيضان. وطلب من الأمراء حث الجنود على الخروج للقتال وكل من يتخلف يتعرض للضرب بالمقارع فبلغ عدد

---

(١) السلوك ٤١٩.

(٢) السلوك ٤٢٠ ـ البداية والنهاية ٢٢٠.

(٣) السلوك ٤٢٠ ـ البداية والنهاية ٢٢٠ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠١.

(٤) السلوك ٤٢٧ ـ بدائع الزهور ٣٠٤ و ٣٠٥ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٤٨ و ٤٨ تحفة الناظرين ١٧٦.

(٥) السلوك ٤٢٩ ـ كنز الدرر ٤٨ ـ بدائع الزهور ٣٠٥ ـ يذكر أنه سجن رسول هولاكو.

الجيش حوالي أربعين ألفاً وسار به حتى نزل بالصالحية[1] وعندما اكتمل تجمع الجيش هناك طلب من الأمراء التقدم للقاء المغول، فرفضوا كلهم ذلك. فقال لهم «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه. فمن اختار الجهاد فليصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[2].

ولما جن الليل تحرك الملك قطز على رأس الجيش: وقال «أنا ألقي التتار بنفسي» عند ذلك سار الأمراء وراءه مكرهين. ثم أمر بيبرس بأن يتقدم بفرقة من الجيش ليستطلع أخبار المغول. فسار إلى غزة في أوائل رمضان يصحبه الملك المنصور الأيوبي محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل، وكان بها قلة من المغول فغادروها لدى وصوله[3].

وصل السلطان إلى غزة وأقام بها يوماً واحداً ثم غادرها على طريق الساحل إلى عكا وهي خاضعة للفرنج، فخرجوا لاستقباله يحملون إليه الهدايا وعرضوا عليه المساعدة العسكرية وخلع عليهم وطلب منهم الوقوف على الحياد، وأقسم لهم أنهم إذا اعترضوا سبيل جندي من جيشه أو أرادوا إيذاءه فسيتحول إلى قتالهم قبل قتال التتار[4].

وجمع الملك الأمراء وحضهم على القتال، وذكرهم بما حل بالمسلمين من القتل والأسر والتشرد على يد المغول، وألح عليهم بالقتال حتى استعادة بلاد الشام وطرد الغزاة ـ فضجوا بالبكاء وتعاهدوا على قتال التتار. عندئذ أمر الملك بأن يتقدم بيبرس بفرقة من الجيش للقاء المغول فاصطدم بطليعتهم، وأرسل إلى السلطان يخبره بذلك وأخذ يقاتلهم كراً وفراً حتى وصل إليه السلطان في عين جالوت غرب بيسان[5].

---

(١) بدائع الزهور ٣٠٥.

(٢) السلوك ٤٢٩.

(٣) السلوك ٤٣٠ ـ المختصر ٢٠٥.

(٤) السلوك ٤٣٠ تتردد كلمة التتار مكان المغول والمشار إليه واحد.

(٥) السلوك ٤٣٠ ـ العيني ٢٤٣ ـ كنز الدرر ٤٩ ـ بدائع الزهور ٣٠٦ ـ الذهبي ٢٤٣ وعين جالوت بين بيسان ونابلس.

وبلغ المغول خروج الجيش المصري إلى فلسطين لقتالهم فتجمعوا بقيادة نائبي هولاكو كتبغا وبيدرا[١] وقد أشار عليهما الأشرف صاحب حمص بالخروج من البقاع قبل وصول الامدادات للمصريين[٢] وسار المغول للقاء المصريين وعددهم حوالي ١٠ آلاف جندي ومعهم الملك السعيد صاحب الصبيبة[٣].

وانهزمت طليعة جيش المغول أمام المصريين[٤]. وفي ٢٥ رمضان ٣ أيلول بعد طلوع الشمس[٥] التحم الجيشان في معركة رهيبة اضطرب فيها جناح الجيش المصري الأيسر[٦]. عندئذ رمى السلطان خوذته عن رأسه وصاح: وا إسلاماه. وحمل بنفسه ومن معه بشدة على المغول[٧]. وانجلت المعركة عن نصر إسلامي. وهزيمة ساحقة للمغول لأول مرة في تاريخهم العسكري.

وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسراً، وقد أبلي الأمير بيبرس بلاء حسناً في المعركة[٨].

وقتل في المعركة كتبغا قائدهم يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ قتله الأمير جمال الدين أقوش الشمسي[٩].

وتراجع المغول إلى بيسان، وهناك أعادوا قواتهم وكر المسلمون في أثرهم ودارت معركة أشد هولاً من الأولى وكان السلطان يصرخ بأعلى صوته: وا إسلاماه ثلاث مرات، يا الله أنصر عبدك قطز على التتار[١٠]. ودارت

---

(١) السلوك ٤٣٩.

(٢) بداية ١٣/ ٢٢٠.

(٣) المختصر ٢٠٥.

(٤) العبري ٤٨٩.

(٥) العبري ٤٨٩ ـ السلوك ٤٣١ ـ بدائع ٣٠٦ ـ درر ٨/ ٤٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦١.

(٦) العيني ٢٨١ نجوم ٧/٧٩.

(٧) نجوم ٧/٧٩ ـ العيني ٢٤٣.

(٨) العيني ٢٤٤ ـ نجوم ٧/٧٩ ـ بداية ١٣/٢٢١.

(٩) السلوك ٦٨٤ ـ درر ٨/٥ ـ النجوم ٧/٧٩ ـ بداية ٢٢٦ و ٢٢٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦١.

(١٠) السلوك ٤٣١ ـ بدائع ٣٠٦ ـ العبري ٤٨٩ ـ مرآة ٤/١٤٩.

الدائرة للمرة الثانية عليهم فانهزموا بعد أن قتل قادتهم وعدد كبير من جنودهم بالإضافة إلى الأسرى ومن بينهم ابن كتبغا[1]. ولما تم النصر للمسلمين نزل السلطان عن فرسه وصلى ركعتين شكراً لله. وأقبل الجيش عليه وقد امتلأت أيديهم بالغنائم[2]. وقد قتل في المعركة نصف الجيش المغولي.

وحمل الظافرون رأس كتبغا إلى القاهرة[3].

وصل نبأ هزيمة المغول إلى دمشق، هرب المتعاونون معهم مع فلولهم وكانت مدة حكمهم على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام[4].

ويوم الأحد نزل السلطان على طبرية وأرسل كتاباً إلى دمشق يحمل في طياته بشرى النصر إلى سكنها فسر الناس بذلك سروراً لا يوصف[5]، لأنهم كانوا قد فقدوا الأمل ويئست النفوس لأن المغول لم يهزموا قط قبل عين جالوت، وبادروا للانتقام من النصارى الذين انتهزوا الفرصة بوجود المحتلين المغول وأهانوا المسلمين، وكانوا قد خربوا المساجد والمآذن التي كانت بجوار كنسائهم وأعادوا دق الناقوس ورفعوا الصليب[6]..

لذلك عمل المسلمون على الانتقام منهم، فأقدموا على نهب دورهم وإحراقها وهدم وإحراق كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وقتلوا عدداً منهم ليشفوا غليلهم[7] وفي ٢٨ رمضان تعرض اليهود للنهب كالنصارى وأصبحت حوانيتهم خاوية، عندها قامت فرقة من الجيش بحفظ الأمن وضبط الأمور لأنه لم يصدر من اليهود ما صدر من النصارى وأقدم المسلمون كذلك على قتل من

---

(١) من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٧٨ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦٦.

(٢) السلوك ٤٣١ ـ بدائع ٣٠٦.

(٣) ذيل مرآة الزمان جـ ٣٦٦ يشير إلى حمل رأسه.

(٤) السلوك ٤٣٢.

(٥) السلوك ٤٣٢ ـ المختصر ٢٠٥ ـ العيني ٢٤٥ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٠ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦٧.

(٦) السلوك ٤٣٢ ـ العيني ٢٤٢ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٤٩ ـ النجوم الزاهرة ٨٠ ـ كنز الدرر ٥٢.

(٧) السلوك ٤٣٢ ـ مرآة الجنان ١٤٩ ـ كنز الدرر ٥٣ ـ جـ ٨ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨١ و جـ ١٣ ص ٢٢١ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦٢.

تعاون من المسلمين مع المغول منهم حسين الكردي طبردار وهدموا الأبنية المجاورة للكنائس[1].

أخيراً وصل السلطان قطز إلى ظاهر دمشق آخر شهر رمضان يصحبه الملك المنصور صاحب حماه[2].

وتغنى الشعراء بيوم عين جالوت واعتبروه من أيام المسلمين الكبرى وكذلك بمديح السلطان قطز[3].

وأقام إلى ٢ شوال حيث دخل المدينة ونزل بالقلعة. ثم أرسل الأمير بيبرس إلى حمص لمطاردة المغول فطاردهم حتى حلب وقتل وأسر عدداً منهم وعاد إلى دمشق[4].

وبسط السلطان قطز سيطرته على بلاد الشام حتى نهر الفرات ووزع الإقطاعات على أعوانه وأنصاره[5].

بعد تراجعهم عن حمص تخلى المغول عن الإسلاب وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين وساروا متراجعين نحو طريق الساحل فهاجمهم المسلمون منتقمين.

أثناء وجود السلطان في دمشق أقدم عدد من الأوشاقية من مماليكه ومعهم عدد من مسلمي المدينة على مهاجمة دور النصارى ونهبوها، فعاقبهم السلطان بأن أعدم ثلاثين منهم وأمر بصرف تعويض قدره ١٥٠ ألف درهم على المتضررين[6].

---

(١) العيني ٢٤٦ ـ المختصر ٢٠٥ ـ النجوم الزاهرة ٢٢١ ويسميهم: المنافقون ـ كنز الدرر ٥٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦١.

(٢) المختصر ص ٢٠٥ ـ أبو شامة ٢٠٨ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦٦.

(٣) المختصر ص ٢٠٦.

(٤) العيني ٢٤٤ ـ الذهبي ٢٤٢ ـ البداية والنهاية ٢٢٢ ـ بدائع الزهور ٣٠٧ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٢ ـ ذيل مرآة الزمان ذيل ٣٦٦.

(٥) السلوك ٤٣٣ ـ النجوم الزاهرة ٨٣ ـ ابن العبري ٤٩١.

(٦) العيني ٢٤٨ ـ والأوشاقية هم الفرسان للرياضة.

نظم السلطان بلاد الشام فعين نائباً له على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ومعه الأمير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى وعلى حمص الملك الأشرف والملك المنصور على حماة. وأمر بيبرس بأن يطرد المغول من حلب ووعده بولايتها، ولما تم ذلك عين بدلاً منه على حلب علاء الدين ابن صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الخلاف بينهما[1].

وغادر السلطان قطز دمشق في ٢٦ شوال إلى مصر بعدما كان يريد التوجه إلى حلب، فقد غير وجهة سيره عندما بلغه تغير بيبرس والمماليك البحريين عليه[2] خاصة أنه. وسيده المعز أيبك قد قتلا أقطاي وأجبر أنصارها من البحرية على التشرد حيث قاسوا أشد أنواع الذل والهوان وكانت عودتهم لنصرة المسلمين:

وقد نبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هي[3]

وكان بيبرس يطمع بولاية حلب خاصة بعد الجهود التي بذلها في قتال المغول وطلبها من السلطان الذي رفض ذلك[4] فخاف كل منهم الآخر، وأخذ قطز يتحين الفرص للتخلص منه، وكان قد ظن أن الأمور استقامت له[5]، فكان لسان حاله:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت   ولم تخف غب ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها   وعند صفو الليالي يحدث الكدر[6]

واتفق بيبرس مع بعض الأمراء على قتل السلطان منهم سيف الدين بلبان وسيف الدين بهادر وبلبان الهاروني وبدر الدين بكتوت وبدر الدين أنس، ولما وصل السلطان إلى القرين على مرحلة من الصالحية خرج للصيد وطارد أرنباً وسار معه الأمراء المتآمرون، دنا منه بيبرس وطلب منه امرأة جميلة من سبي

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ جـ ٢٢٢ ـ المختصر ٢٠٧ ـ السلوك ٤٣٤ ـ كنز الدرر ٦٠ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٤٩.
(٢) العيني ٢٤٨ ـ بدائع الزهور ٣٠٧.
(٣) العيني ٢٥٣ ـ مرآة الجنان ١٤٩.
(٤) الذهبي ٢٤٣ ـ البداية والنهاية ٢٢٢.
(٥) السلوك ٤٣٥ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٦٠ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٢.
(٦) بدائع الزهور قسم ١ ص ٣٠٧.

المغول فلبى السلطان الطلب ومنحه ما أراد. بعدها تظاهر بيبرس بأنه يريد تقبيل يد السلطان ـ وهي الإشارة بينه وبين الأمراء المتآمرين للهجوم عليه، سارع بكتوت وضربه بالسيف على عاتقه وأنزله أنس عن فرسه ورماه بهادر بسهم أرداه قتيلاً وذلك نهار السبت ٢٥ ذي القعدة ٦٥٨هـ وتركوه ملقى على الأرض ثم حمل إلى القاهرة حيث دفن هناك[١] وكان قد حكم ١١ شهراً وسبعة عشر يوماً.

عزّ مقتله على بقية الأمراء لأنه قتل بغير ذنب وهو الذي تصدى للمغول وهزمهم وكان إقدام أمراء المماليك على قتله لأنه ليس من بني جنسهم فهو سليل الملوك الخوارزميين اسمه محمود بن ممدود أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه وأبو ابن عم السلطان[٢]. وهكذا انتهت حياة قاهر المغول في عين جالوت على هذا الشكل.

---

(١) السلوك ٤٣٥ ـ ويذكر المكان: القصير وهي بلدة قرب الصالحية ـ مرآة الجنان ١٤٩ ـ بدائع الزهور ٣٠٧ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٦١ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٣ ـ البداية والنهاية ٢٢٢ لم يذكر الأسماء ـ المختصر ٢٠٧ ـ تحفة الناظرين ١٧٨ ـ ابن العبري ٤٩٢ ويذكر أن الذي قتله بيبرس ـ العيني ٢٥٤ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٠.

(٢) السلوك ٤٣٥ ـ العيني ٢٥٥ ـ الذهبي ٢٤٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٦٨.

الظاهر بيبرس

الظاهر بيبرس تركي من مواليد قبجاق ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢ م[١]. كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب. خدم بإخلاص واكتسب من أخلاقه. وبعد وفاة الملك الصالح دخل في خدمة ابنه المعظم تورانشاه. بعد مقتل أقطاي هرب إلى بلاد الشام وعاش طريداً شريداً. ثم عاد إلى مصر عندما اقترب المغول من حدودها وساهم مساهمة فعالة في معركة عين جالوت التي انجلت عن هزيمة ساحقة لهم. وأقدم مع عدد من أمراء الجيش على اغتيال السلطان قطز، وتقلد الحكم مباشرة بعد مصرع السلطان نهار السبت ١٥ ذي القعدة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠[٢]. وبايعه الأمراء أقطاي وبلبان الرشيدي وبيسرى وقلاوون وبيليك وغيرهم[٣]. دخل قلعة الجبل بصحبة الأمراء ليلة الاثنين ١٩ ذي القعدة. كانت القاهرة قد زينت لاستقبال المظفر قطز والناس في فرح وسرور بالنصر المبين، وإذ بالمنادي ينادي «ترحموا على الملك قطز وادعوا لسلطانكم القاهر ركن الدين بيبرس»[٤]. وحضر إلى بيبرس الصاحب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير وأشار عليه بتغيير لقب القاهر لأنه ما تلقب به أحد وأفلح عندها تلقب بالظاهر[٥].

---

(١) بدائع الزهور ٣٠٨.

(٢) السلوك ٤٣٦ ـ بدائع الزهور ٣٠٨ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٦٢ ـ المختصر ٢١٨ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٤٩.

(٣) السلوك ٤٣٦ ـ العيني ٢٦١ لم يذكر الأسماء.

(٤) كنز الدرر جـ ٨ ص ٦٢ ـ المختصر ٢١٨.

(٥) السلوك ٤٣٧ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٩٤ ـ البداية والنهاية ٢٢٣ ـ بدائع الزهور ٣٠٨ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٣.

تخوف سكان القاهرة من عودة المماليك البحرية إلى الحكم لجورهم وسوء دارتهم. فما كان من السلطان بيبرس إلا أن ألغى جميع ما استنه سلفه قطز من ضرائب، فكان المبلغ الذي أبطل تحصيله ستماية ألف دينار. وبهذا التدبير حظي برضى الرعية وسر الناس بذلك[1]. نهار الاثنين قعد السلطان بالأيوان في القلعة وأقسم له العسكر يمين الولاء على القرآن[2]. ثم وزع المناصب على الأمراء المقربين منه. عين بيليك نائباً له وأقطاي المستعرب أتابكاً ولاجين الدرفيل دواداراً أكبر وأقوش النجيبي استاداراً وأيبك الأخرم جانداراً وبلبان الرشيدي دواداراً أصفر وبهاء الدين يعقوب الشهروزي أمير أخور وبيسرى الشمسي على ألف وقلاوون كذلك، وأياجي وبكجري حاجبين، وفخر الدين بن لقمان كاتب الإنشاء الشريف ـ ووزر ابن الزبير بعد عزل تاج الدين بن بنت الأعز منها، ثم عزل ابن الزبير وعين مكانه بهاء الدين بن حنا الصاحب[3]. وأرسل الكتب إلى حكام الأقاليم يخبرهم بتسلمه الحكم وهم الأشرف ملك حمص والمنصور صاحب حماة والمظفر عثمان صاحب صهيون والمظفر علاء الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل والإسماعيلية وسنجر الحلبي صاحب دمشق، فاعترفوا بها ما عدا حاكم دمشق سنجر الذي رفض سلطته ودعاه لنفسه سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م وتلقب بالمجاهد[4]، وطلب من لاجين حاكم حلب الاعتراف به وإقامة الخطبة له فرفض لاجين الطلب وأعلن أنه نائب من يحكم مصر معترفاً بالظاهر بيبرس، فكافأه بيبرس بأن ولاه على حلب[5].

وحدثت ثورة في القاهرة من السودان والركبدارية والغلمان، اخترقوا القاهرة وهم ينادون «يا آل علي» واقتحموا حوانيت السيافين بين القصرين

---

(١) السلوك ٤٣٨ ـ العيني ٢٧٠ ـ بدائع الزهور ٣١١ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٦٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٢.

(٢) بدائع الزهور ٣٠٩.

(٣) بدائع الزهور ٣١٠ ـ النجوم الزاهرة ٨٤ ـ المختصر ٢١٨.

(٤) السلوك ٤٣٩ ـ العيني ٢٦٣ ـ مرآة الجنان ١٤٩ ـ الذهبي ٢٤٣ ـ البداية والنهاية ٢٢٢ ـ كنز الدرر ٦٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٤.

(٥) السلوك ٤٤٠ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٥.

وأخذوا ما بها من سلاح وفتحوا المرابط واستولوا على الخيل، كان يقودهم شخص يدعى الكوراني يقيم في قبة الجبل مظهراً الزهد. أحاط بهم الجيش أثناء الليل وقضى على فتنتهم[1].

الجهاد ضد الصليبيين

في سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م دخل مدينة حلب الأميران سيف الدين الرشيدي وسنقر الرومي وسارا منها إلى الفرات وأغارا على إمارة أنطاكية الصليبية، فأحرق الجيش المراكب وأتلف الغلال وعاد غانماً.

بدأ الفرنج بإرسال الرسل إلى الملك الظاهر يسألون الصلح فطلب منهم أموراً مستحيلة رفضوها، فاحتقرهم، وأرسل جيشاً من بعلبك أغار على مناطق نفوذهم فتوسلوا إليه بأن يأمر الجيش بالعودة عن مناطقهم، وصادف أن عم الغلاء البلاد ولم يكن قد أعد للحرب عدتها فأجابهم إلى طلبهم والعودة بالأمور إلى ما كانت عليه أيام الملك الناصر الأيوبي وإطلاق الأسرى، فوفدت عليه رسل الصليبيين لأخذ العهود وإقرار الهدنة، ذهب لمقابلته حاكم يافا جوان دلين فأذن له بالمثول بين يديه وأجابه إلى طلبه وكذلك ملك بيروت فقد أقر له الهدنة كما كانت أيام الناصر الأيوبي[2].

أما بشأن الأسرى فقد تذرع الصليبيون بحجج واهية لعدم إطلاق سراحهم وطالبوا بتعويض لقاء ذلك، عندها أمر الظاهر بنقل أسراهم إلى دمشق من نابلس واستخدمهم عمالاً في البناء، ثم طالبوا بتعويض عن زرعين فأجابهم بأنهم أخذوا التعويض عنها أيام الناصر مرجعيون وقايضوا صاحب تبنين والمقايضة في أيديهم «فكيف تطلبون العوض مرتين؟!» فإن بقيتم على العهد، وإلا فلا لنا شغل إلا الجهاد وأمر الأمير جمال الدين الحموي بالإغارة على مناطق الصليبيين فغزا وعاد غانماً[3].

وحدثت مناوشات بين التركمان والفرنج في الجولان وكان التركمان قد

---

(١) السلوك ٤٤٠ ـ العيني ٢٧٠و ٢٧١.

(٢) السلوك ٤٦٤ ـ العيني ٣١٦ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٩.

(٣) السلوك ٤٦٤.

هربوا من المغول هاجمهم الصليبيون واستطاع التركمان هزيمتهم وأسروا عدداً منهم وباعوهم دون إذن السلطان فاضطروا للهرب من البلاد إلى المناطق شمال سوريا خوفاً من بطش الظاهر[1].

بعد أن استكمل تجهيز الجيش خرج السلطان بيبرس سنة ٦٦١ هـ/ ١١٦٢ م إلى بلاد الشام ووصل إلى غزة ومنها إلى الطور في ١٢ جمادي الآخرة[2]. وفد عليه الملوك المسلمون ورسل الفرنج، فأطلع الملوك على المراسلات الدائرة بين الملك المغيث الأيوبي والمغول، وعندما تأكد القضاة من صحة المراسلات والخطوط أفتوا بقتله، عندها أرسله السلطان مخفوراً إلى قلعة الجبل حيث سجن[3].

بعد أن تخلص من المغيث الأيوبي توجه إلى جهاد الصليبيين خاصة بعد مناورتهم بشأن زرعين وأنهم اعتمدوا أموراً تفسخ الهدنة، ولما وصل إلى وسط بلادهم أرسل إليهم كتاباً من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة. ومن خفي عنه خروج هذه العساكر وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة والحيتان في الماء من كثرتها... ولعل وقع سنابكها قد أصم إسماع من وراء البحر من الفرنج.. فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأي شيء تعلمون؟![4].

ثم وصل نواب يافا وأرسوف محملين بالهدايا فتقلبها منهم وأمر الجيش بعدم الاعتداء عليهم ولا إتلاف زرعهم. وكانت كتب ملوكهم ترد على السلطان يطلبون فيها فسخ الهدنة فلما صار في وسط مناطقهم ندموا وأعلنوا تمسكهم بالمواثيق والعهود[5].

في اليوم الذي أعتقل فيه الملك المغيث مثل أمامه ممثلو الإمارات الصليبية وسألهم ماذا يقولون، فأجابوا بأنهم يلتزمون بالهدنة فكان جواب

(١) العيني ٣١٨.
(٢) المختصر ٢١٦ ـ العيني ٢٥٦ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٣١.
(٣) الذهبي ٢٦٣ ـ السلوك ٤٨٢ ـ المختصر ٢١٦ ـ البداية والنهاية ٢٣٨ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٣٢.
(٤) السلوك ٤٨٤.
(٥) السلوك ٤٨٤.

الظاهر أن هذا كان ممكناً قبل دخوله مناطقهم وكانوا كفوه المشقة وإنفاق الأموال ولا أسر لهم أسيراً[1] لقد كانوا ينتهزون الفرص للحصول على امتيازات أكثر ويتهربون من العهود التي كانوا قد أعطوها خاصة بإطلاق سراح الأسرى وعدم الاعتداء على التجار، فقد امتنعوا عن إطلاق سراح الأسرى وسخروهم بالأشغال واعتدوا على التجار ونهبوا أموالهم معلنين أنها نهبت في انطرسوس[2].

وأقدم صاحب قبرص على اعتقال السفراء المسلمين وهو ليس بقائد جيش ولا صاحب حصن كبير بل سفنه وتجاره في عكا والساحل[3].

وقال لهم السلطان الظاهر: «وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم ولم يبق لي عدو أخافه فردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فأني لا أقبل غير ذلك»[4].. وكان السلطان الصالح إسماعيل أثناء خلافه مع السلطان نجم الدين أيوب قد تنازل للصليبيين عن صفد والشقيف لقاء مساعدتهم له ضد السلطان نجم الدين[5].

خشي رسل الصليبيين من قول السلطان وأعلنوا أنهم متمسكون بالهدنة وطلبوا منه بقاءها سارية المفعول وأنهم يطلقون الأسرى ويحلون جميع المشاكل العالقة. رفض الظاهر طلبهم وأمر بإخراجهم من مجلسه. ثم أرسل الأمير علاء الدين طيرس إلى كنيسة الناصرة التي يعظمها النصارى لاعتقادهم بأن دينهم أنطلق منها فهدمها. ولم يجرؤ الصليبيون على القتال. ثم وجه الأمير بدر الدين الأيدري إلى عكا فاقتحم أبوابها ثم أعاد الكرة مرة ثانية وصادر مواشي الصليبيين وعاد محملاً بالغنائم والأسلاب[6].

ونمي للسلطان بأن بعض سكان الساحل من الفلاحين يعيثون فساداً

---

(١) السلوك ٤٨٥.
(٢) السلوك ٤٨٥.
(٣) السلوك ٤٨٦.
(٤) السلوك ٤٨٦.
(٥) السلوك ٤٨٦.
(٦) العيني ٣٥٦ ـ المختصر ٢١٧.

ويتجسسون للصليبيين ففرض عليهم غرامات جباها منهم وأكرههم على حملها إلى بيت مال المسلمين، فكانت مبالغ كبيرة من نابلس والساحل وبذلك قضى على المفسدين في البلاد، ورأى أن ذلك أفضل من قتلهم لأنهم يملكون أراضٍ ومواشي تستفيد منهم الدولة كثيراً[١].

وليلة السبت ٤ جمادي الآخرة جهز السلطان جيشاً من الفرسان وانطلق من الطور إلى عكا التي وصل إليها صباحاً وحاصرها من جهة البر، وأرسل جماعة لحصار برج قريب منه ونقبه واستمر العمل فيه حتى المغرب. وعاد السلطان عن عكا[٢].

كان السلطان يهدف من هذه العملية العسكرية استكشاف قوة الصليبيين في عكا وليس اقتحامها وأنهم كانوا يشيعون بأنها حصينة ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، خاصة وأنها أضحت عاصمتهم بعد طردهم من القدس وأنها الباب المؤدي إلى فلسطين. وكانت تساند حاميتها قوة فرنسية ينفق عليها لويس التاسع الطليق[٣].

كان سكان عكا يراقبون الوضع من أبوابهاولا يجرؤون على الخروج للتصدي ثم عاد السلطان لحصارها في اليوم التالي فوجد أن الصليبيين قد حفروا خندقاً حول تل الفضول وجعلوا العوائق في الطريق من حفر وآبار وانتظموا صفوفاً فوق التل[٤]. ولما أشرف السلطان عليهم نظم الجيش استعداداً للقتال، وأمره بالتكبير، فدب الحماس في النفوس وللحال ردمت الخنادق وأزيلت المعاثر بأيدي المتطوعين المجاهدين وصعد المسلمون إلى قمة التل وتراجع الصليبيون منهزمين إلى داخل المدينة[٥]. وأقدم المسلمون على هدم الأبراج التي حول المدينة وأحرقوا الأشجار حتى أصبح دخانها كالغيوم والسلطان يراقب الوضع من قمة التل. ثم سير جيشاً إلى أبواب

---

(١) السلوك ٤٨٨.

(٢) العيني ٣٥٦ ـ المختصر ٢١٨ ـ من تاريخ سوريا ٢٨٥.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٥٠.

(٤) السلوك ٤٨٨.

(٥) السلوك ٤٨٨.

المدينة فأسر وقتل كثيراً من الصليبيين في ساعة واحدة[1]. وكان امراء الجيش يهاجمون أبواب المدينة حتى هلك عدد من المكلفين بحراستها وفي آخر النهار وصل السلطان إلى البرج الذي نقب وأنهار أمامه، وأسر فيه ٤ فرسان وأكثر من ثلاثين رجلاً. وفي اليوم التالي جال في مناطق الصليبيين ومر على الناصرة وشاهد كنيستها المدمرة وقد سويت بالأرض[2].

ونهار الاثنين ١٣ جمادي الآخرة رحل السلطان من الطور إلى القدس وأناب عنه في الساحل الأمير ناصر الدين القيمري. ونظم أمور المدينة المقدسة واهتم بالمسجد الأقصى والأوقاف، ومن القدس توجه إلى الكرك نهار الخميس ٢٣ جمادي الآخرة، وبعد أن أخضعها فدخلها في ١٧ رجب وكانت أزدانت بالزينة مستعدة لاستقباله[3].

وفي هذه الأثناء هاجم هيثوم بن قنسطنيطين ملك الأرمن ومعه ألف فارس عينتاب من ناحية صرفند كار. فأمر السلطان الجيش المرابط في حمص وحماه وحلب بمهاجمة بلاد الأرمن فقتلوا ٣٠ رجلاً وأسروا أميراً أرمنياً وكان بين القتلى ابن هيثوم ووقع الابن الآخر في الأسر واسمه ليفون وفتحوا قلعة العامودين وعادوا بالغنائم فأضطرو الأرمن للتراجع[4] وهاجم المسلمون مدينة أنطاكية[5] وفي جمادي الآخرة سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤ شرع السلطان ببناء برج في قارة ـ بين دمشق وحمص ـ لحفظ الطرق من تسلل الفرنج. وأمر كذلك ببناء شقيف تيرون وشحنه بالرجال والذخائر[6].

فتح قيسارية

منذ أن تسلم الحكم نذر الظاهر نفسه للجهاد حتى طرد الغزاة من مغول وصليبيين من بلاد المسلمين الشرقية. ففي مطلع سنة ٦٣٣هـ/

(١) السلوك ٤٨٩ ـ العيني ٣٥٦.
(٢) السلوك ٤٨٩.
(٣) العيني ٣٥٦ و ٣٥٨.
(٤) العيني ٣٨٤ ـ المختصر جـ ٤ ص ٣.
(٥) السلوك ٥١١.
(٦) السلوك ٥١١.

١٢٦٥م خرج الظاهر على رأس جيش كبير لصد هجوم مغولي على البيرة[(١)]. ولما وصل إلى فلسطين وصلته الأخبار بأن نوابه في شمال بلاد الشام قد دحروا المغول، فوجه جشه نحو الصليبيين واتجه نحو غابة أرسوف للصيد وهو يهدف من عمله هذا الهجوم على قيسارية، وصل إلى المدينة نصب حولها المجانيق التي أشرف بنفسه على تثبيتها وهاجم المدينة فجأة صباح الخميس ١٩ جمادي الأولى شباط على غفلة من سكانها. أحكم عليها الحصار وضربها الجيش بالمجانيق حتى سقطت خلال ثلاث ساعات في ٢٧ شباط ١٢٦٥/٨ جمادي الأولى[(٢)] ٦٦٣ ولاذ سكانها بقلعتها الحصينة المعروفة بالخضراء. كان الصليبيون قد حصونها كي تصمد في وجه المسلمين اذا هاجموها. ولكن ذلك التحصين لم يجد نفعاً أمام عزيمة السلطان الظاهر، إذا استمر الجيش في تشديد الهجوم. وأثناء ذلك غزت فرقة من البدو التركمان أرسلها الأمير شهاب الدين القيمري مدينة عكا وعادت بعد أن أسرت عدداً من الفرنج[(٣)].

وأخيراً بعد رمي القلعة العنيف بالمجانيق اضطرت حاميتها إلى الاستسلام بعد أسبوع من الهجوم الصاعق نهار الخميس منتصف جمادي الأولى ٤ آذار سمح الظاهر للحامية بالخروج سالمة ومغادرة المدينة، ثم أمر بتدمير قيسارية وقلعتها[(٤)]. وأرسل سنقر الرومي وسيف الدين المستعرب ليهدم قلعة الملوحة قرب دمشق لأنها كانت تشكل خطراً على المسلمين[(٥)].

فتح أرسوف

وفي ٢٦ في الشهر ذاته هاجم السلطان قلعة عثليت الخاضعة للداوية. وسير في الوقت ذاته جيشاً بقيادة الأمراء سنقر وعز الدين وسنقرا إلى حيفا. وصل الجيش فجأة إليها فلاذ بالفرار من تنبه للأمر، ولقي الباقون مصرعهم.

---

(١) السلوك ٥٢٤ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٧.

(٢) البداية والنهاية ٢٤٤ ـ ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣١٨ ـ أبو شامة ٢٣٣.

(٣) السلوك ٥٢٧.

(٤) السلوك ٥٢٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٣١٨.

(٥) السلوك ٥٢٧ ـ العيني ٣٩٦ ـ البداية والنهاية ٢٤٤ ـ ذيل مرآة الزمان ٣١٨ ـ أبو شامة ٢٣٣.

دخل الجيش المدينة ودمرها مع قلعتها في يوم واحد وعاد بالأسرى والغنائم[1].

ولكن قلعة عثليت صمدت في وجه المسلمين، فأمر السلطان بإحراق القرية الواقعة خارج الأسوار. ثم تخلى عن حصارها وغادرها في ٢١ آذار ١٢٦٥م/ جمادي الآخرة ٦٦٣هـ وزحف نحو أرسوف في ٢٩ منه وكان الفرسان الاسبتارية قد شحنوها بالمؤن والجيش[2]. إذ كان فيها ٢٧٠ فارساً استبسلوا في القتال. كان السلطان نفسه يشارك في العمليات العسكرية. وقد حاول الصليبيون اختطافه فقاتلهم باليد يساعده الأمراء سنقر وبيسرى وبدر الدين وقتل بيده فارسين صليبيين ورمى في يوم واحد ثلاثماية سهم. وأنهار برج تجاه الأمير بدر الدين نتيجة القصف العنيف فدخل منه المسلمون على حين غرة داخل المدينة، وهكذا سقطت المدينة السفلى في ٨ رجب بعد حصار دام أربعين يوماً[3]. دمرت خلالها حصونها وأسوارها، ثم تلتها القلعة بعد أن فقد قائدها ثلثي فرسانه[4]. دخلها الأمير علم الدين سنجر الخياط فجمع سيوف الصليبيين وربط الأسرى وعددهم حوالي الألف وساقهم إلى السلطان الذي أرسلهم إلى الكرك[5]. وأباح السلطان القلعة للمسلمين فأخذوا ما بها من غلال وذخائر ومواشي، وحرر من كان بها من الأسرى، وقيد بقيودهم أسرى الصليبيين[6]، سخرهم بهدم المدينة مع قلعتها[7]. ثم أرسل السلطان الكتب إلى المناطق تحمل بشائر النصر. وأمر السلطان بإجراء كشف بلاد قيسارية، وطلب قاضي دمشق شمس الدين بن خلكان وعدوله ووكيل بيت المال بها والفقهاء ومنح بحضورهم المناطق المحررة إلى قادة جيشه المجاهدين الذي استرجعوها بسيوفهم وكتب التواقيع إلى كل واحد منهم في كتاب طويل[8].

---

(١) السلوك ٥٢٧ ـ العيني ١٩٧.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ٥٤٦.

(٣) ذيل مرآة الزمان ٣١٩ ـ من تاريخ سوريا ٢٨٦.

(٤) كنز الدرر جـ ٨ ص ١٠٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٣١٨.

(٥) العيني ٣٩٧ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٤.

(٦) السلوك ٥٣٠.

(٧) كنز الدرر ١٠٧.

(٨) السلوك ٥٣١ و ٥٣٣ ـ كنز الدرر ١٠٨.

بعد تدمير أرسوف وتنظيم البلاد المحررة عاد السلطان إلى القاهرة بعد أن ترك قوة لحمايتها، وصارت حدود الدولة الإسلامية على أبواب عكا[١].

فتح صفد

وفي مستهل شعبان ٦٦٤هـ/أيار ١٢٦٦ خرج السلطان إلى غزة ومنها إلى العوجا ثم إلى الخليل. وعاد بعد ذلك إلى القدس. وفي مدينة الخليل أصدر فرماناً منع بموجبه أهل الذمة من دخول المدينة بعد أن كانوا يدخلونها مقابل ضريبة من المال[٢] وواصل سيره إلى عين جالوت. وعندما كان في غزة أصدر أمراً إلى الأميرين قلاوون وجمال الدين أيدغدي بمهاجمة حصون طرابلس[٣]. فتقدم الجيش إلى حمص وأغار على مناطق الصليبيين وحاصر حصن الأكراد وفتح عرقة وحلبا والقليعات[٤] ولما وصل إلى القليعات طلب أهلها الأمان فأمنهم قلاوون وأرسل الأسرى إلى السلطان الذي أمر بنقلهم إلى جسر يعقوب حيث يراهم أهل صفد فتنهار معنوياتهم. وأمر بهدم القليعات[٥].

وفي الوقت ذاته أغار الأمير علاء الدين على صور والأمير إيتامش على صيدا. وهاجم السلطان بنفسه يقود الجيش عكا، وغنم المسلمون كثيراً حتى كسدت المواشي فلم تجد من يشتريها[٦]. فطلب أهل عكا الصلح. هذه الغارات كانت خلال شهر رمضان ويهدف السلطان منها تدمير قوى العدو بالقضاء على مقومات الدفاع المادية والمعنوية التي يتمتع بها لأن كل مدينة كانت حصناً منيعاً مجهزاً بالأسلحة والذخائر والمؤن والأعداد البشرية المدربة كي تصمد في وجه المسلمين ولكن في عهد الظاهر كان صمودها إلى حين.

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٥٤٨، جـ ٣.

(٢) السلوك ٥٤٤.

(٣) العيني ٤٢١.

(٤) السلوك ٥٤٥ ـ العيني ٤٢١ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٦٢ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٦ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٣٨ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٣٧.

(٥) العيني ٤٢١ ـ المختصر جـ ٤ ص ٣.

(٦) من تاريخ سوريا ٢٨٧.

كان السلطان يخطط لاسترجاع صفد. فعندما غزا عكا أمر بصنع المجانيق، وكان يريد مهاجمتها تبين له أن كتيبة فرنسية ينفق عليها لويس التاسع ترابط فيها[1]. ترك عكا إلى عين جالوت ثم نزل على صفد يوم الاثنين ٨ رمضان ٦٦٤هـ/ حزيران ١٢٦٦. كان يرابط في قعلتها الداوية[2]. كانت حاميتها على درجة من القوة ومن بين أفرادها جنود من المسيحين الشرقيين والمهجنين[3] وضرب الظاهر الحصار عليها وأحضر إليها المجانيق حملها الرجال على أعناقهم[4]. وأثناء حصار صفد وفدت عليه رسل ملوك صور والداوية وبيروت ويافا وصهيون[5]. وشدد الهجوم على المدينة وكان يشارك في القتال بنفسه. وأتت إليه النجدات من مصر والشام وعلى رأسها الملك المنصور صاحب حماة[6] دام الحصار أربعين يوماً من ٨ رمضان إلى ١٥ شوال/ حزيران/ تموز[7].

على أثر المقاومة العنيفة لجأ السلطان إلى خطة ترمي إلى تفريق صفوف العدو فأعلن أنه يعفو عن الوطنيين إذا استسلموا. كان لهذا الإعلان أثره في نفوس الجنود الصليبيين فأحدث انشقاقاً بينهم فأخذوا يفرون من الجيش طلباً للأمان بعد أن تبين لهم عقم المقاومة فالحصار يشتد والنجدات لم تأتهم. وأرسل الداوية جندياً وطنياً يدعى ليو إلى الظاهر مزوداً بتعليمات تقضي بتسليم الحصن لقاء الأمان[8].

وعاد الجندي المفاوض مزوداً بأمان السلطان المشروط وهو أن يخرجوا مجردين من السلاح وآلآت الحرب والأموال ولا يتلفوا شيئاً من ذخائر القلعة،

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٥٥٠.
(٢) بدائع الزهور ٣٢٥ ـ النجوم الزاهرة ١٣٨ ـ الذهبي ٢٧٥ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٣٧.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية ٥٥١.
(٤) العيني ٤٢١ ـ النجوم الزاهرة ص ١٣٨.
(٥) السلوك ٤٥٦ ـ النجوم الزاهرة ١٣٩ ـ ويذكر قدوم صاحب صهيون فقط.
(٦) المختصر جـ ٤ ص ٣.
(٧) الذهبي ٢٧٥ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٣٨.
(٨) الحروب الصليبية ٥٥١ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٦٣ يشير أن السلطان أخذها خديعة ـ المختصر ص ٣.

وإن يجري بتفتيشهم عند خروجهم ومن أمسك متلبساً بهذه المحظورات يعتبر ناقضاً للعهد[1].

ونهار الجمعة ١٨ شوال ـ تموز استسلمت حامية المدينة ورفعت الأعلام الإسلامية فوق أسوارها. ووقف الصليبيون صفوفاً بين يدي السلطان بباب صفد، فأمر بتفتيشهم فأمسك معهم ما يناقض شروط الأمان من سلاح وفضيات حتى أنهم اصطحبوا معهم أسرى مسلمين على أنهم نصارى، فجرى تحريرهم واعتقل الصليبيون المخالفون للعهد. دخل المسلمون المدينة بقيادة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار[2] وأمر السلطان بإحضار الأسرى وكانوا حوالي الألفين إلى تل قرب صفد وأمر بضرب أعناقهم هناك حيث كانوا يسفكون دم المسلمين الحرام[3] وسبى الذرية. وعفا عن اثنين الرسول الجندي ليو فقد اعتنق الإسلام ودخل في خدمة السلطان فاتهمه الصليبيون بالخيانة[4]. والآخر يخبر الفرنج بما جرى. وصعد السلطان إلى قلعة المدينة، وزع الغنائم على الأمراء، جعل مقدمها الأمير علاء الدين الكبكي ونيابة البر عز الدين العلائي ونيابة القلعة مجد الدين الطوري وأقطع البلاد للجند[5].

وشجع المواطنين على الإقامة في المدينة لأعمارها وحول كنيستها إلى جامع[6].

عندما علم سكان عكا ما حل بصفد أرسلوا إلى الظاهر رسولاً يطلبون منه السماح لهم بنقل قتلاهم إلى عكا للتربك بهم باعتبارهم شهداء، إلى هذا الحد بلغ بالصليبيين العهر السياسي. اعتقل الرسول وقاد فرقة من الجيش إلى

---

(١) السلوك ٥٤٧ ـ بدائع الزهور ٣٢٥ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٧ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٦.

(٢) كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٨ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٣٨.

(٣) العيني ٤٢٢ ـ مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٦٢ ـ كنز الدرر ١١٨ ـ البداية والنهاية ٢٤٦ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٣٩.

(٤) السلوك ٥٤٧ و ٥٤٨ ـ النجوم الزاهرة ١٣٩ ـ من تاريخ سوريا ٢٨٧.

(٥) النجوم الزاهرة ١٣٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٤٣.

(٦) مرآة الجنان ١٦٢ ـ كنز الدرر ١١٧ و١١٨ ـ العيني ٤٢٢.

عكا فجأة ووصل إلى أسوارها صباحاً دون أن يعلموا به. خرج سكان عكا كعادتهم دون أن يعلموا بوجود جيش السلطان على أبواب المدينة، فقتل عدداً كبيراً منهم وعاد إلى صفد وأطلق الرسول ومعه رسالة «عد إليهم فقد عملنا شهدا وكفيناكم مؤونة النقل وكلفته»[1]

بعد تحرير صفد بث السلطان سراياه في مناطق الصليبيين، هونين وتبنين والرملة وعين عليها عمالاً[2]. وصدرت الكتب تزف بشائر النصر إلى قاضي قضاة الشام ابن خلكان من إنشاء ابن العجمي[3].

ثم قدم رسول الاسبتار يطلب الصلح من نواحي حمص حتى بلاد الإسماعيليين، رفض السلطان ذلك العرض إلا بشروط وهي إبطال الضريبة التي كان الصليبيون يفرضونها على حماة ومقدارها أربعة آلاف دينار وعلى بلاد أبي قبيس وهي مقابل شيزر ثمانماية دينار وعلى بلاد الإسماعيليين ألف ومئتا دينار ومئة مدحنطة وشعيراً فاستجابوا لمطالب السلطان وأعلمهم أنه ينقض العهد متى يشاء ويعلمهم بذلك[4].

وانتهز صليبيو عكا الفرصة وهاجموا قرية طين شيحا وخطفوا أربعة مسلمين شنقوهم على الفور بلغ الخبر السلطان فأمر بمهاجمة مناطق الصليبيين وقتل جيشه حوالي مئتي صليبي ونهبوا المواشي وعادوا بالغنائم، فكانت هذه الغارة انتقاماً لقتلى المسلمين الأربعة[5].

وفي ١٣ ذي الحجة وردت شكوى للسلطان وهو في دمشق لملاقاة جيشه بعد معركة سيس، أن أهل قارا النصارى يعتدون على المسلمين من سكان القرى المجاورة بالخطف ويبيعونهم عبيداً إلى صليبيي عكار. فقد أفاد ركابي من مصر خدم مع الطواشي شهاب الدين مرشد مقدم عسكر حماة أنه مرض قرب قارا مساء، فإذا برجلين من سكانها اصطحباه ضيفاً

---

(١) كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٨ ـ تاريخ الحروب الصليبية ٥٥٢.

(٢) السلوك ٥٥٠ ـ البداية والنهاية ٢٤٧.

(٣) ذيل مرآة الزمان ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٠.

(٤) السلوك ٥٥٠.

(٥) السلوك ٥٥٠.

عليهما في القرية، أقام بضيافتهما ثلاثة أيام حتى برىء. وأراد الالتحاق بالجيش، منعاه من ذلك أوثقاه ووضعا مسداً في فمه كي لا يصرخ ومضيا به إلى حصن الأكراد حيث باعاه للصليبيين بأربعين ديناراً صورياً. وصادف أن ذهب بعض تجار المسلمين من دمشق إلى الحصن واشتروا أسرى كان من بينهم ذلك الركابي وأطلق سراحه في دمشق وخدم في الجيش. ولما نزل السلطان على قارا حضر إلى الأمير فارس الدين أتابك وأفضى إليه بقصته واستطاع التعرف على أحد الرجلين الذي اعترف بجريمته وأضاف أن سكان قارا جميعهم يقومون بهذه الأعمال[1]. وكذلك أفاد بعض الأسرى المحررين من صفد أن سبب وقوعهم في الأسر بيد الفرنج هم أهل قارا النصارى[2].

وحضر رهبان قارا لمقابلة السلطان فأمر باعتقالهم بعد ما تبين له أعمال سكانها السيئة ركب إلى الصيد خارج القرية وأمر بقتل سكانها جميعاً وبنهب أموالهم. وتفصيل ذلك أنه بعد أن عاد من رحلة الصيد توجه بالعسكر إلى تل شمال القرية وطلب بإحضار المتنفذ بها أبي العز وأمره بإخراج سكانها بسبب الصيد، فخرجوا ولما رحلوا إلى مكان معين أمر بضرب أعناقهم جميعاً وكانوا حوالي ألفاً وسبعين. وكذلك وسّط الرهبان. لم ينج من قارا الأمن غفلت عنه يد المنون. وعاد إلى قارا وأطلق الجيش فنهبها ثم حول كنيستها إلى جامع[3]. وأسكن فيها التركمان وغادر السلطان بعد ذلك إلى مصر.

ثم وفدت على السلطان رسل ملوك الصليبيين والأمبراطور والفرنتش محملين بالهدايا. بعد ذلك عزم بوهيموند صاحب طرابلس ومعه الداوية والاسبتارية على مهاجمة حمص عبر مخاضة بلاله. عرف ذلك مسبقاً الأمير علم الدين سنجر فسبقهم إلى المخاضة ونصب لهم الكمائن، فلما اقتربوا منها

---

(١) كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢٠ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٤٤.

(٢) العيني ٤٢٥.

(٣) كنز الدرر ص ١٢٠ ـ السلوك ٥٥٣ ـ العيني ٤٢٥ ـ النجوم الزاهرة ١٤٠ ـ البداية والنهاية ٢٤٧ ـ المختصر ٤ جـ ٤ ـ الذهبي ٤٧٦ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٤٥.

انقض الجيش عليهم وهزمهم فاضطروا للتراجع[1].

واستمرت العمليات التدميرية في مناطق الصليبيين. ففي المحرم سنة ٦٦٥هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٦ أرسل السلطان فرقة من الجيش ومتطوعين بقيادة الأمير سيف الدين بكتر وشهاب الدين بوزبا، أرسلهم من صفد إلى مناطق الصليبيين فأحرقوا المزروعات.

ثم قدمت نجدة للفرنج من قبرص بقيادة هيو الوصي على العرش ومعه ألف ومئة فارس[2]. ولما غادر الجيش الإسلامي الجليل في الخريف انتهز هذه الفرصة هيو وشن هجوماً على طبرية[3]. وكان يقود الفرنسيين جيفري سارجنس. كمنت حامية صفد لطليعة المهاجمين وهاجم العرب بقية الجيش في المحرم ٦٦٥هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٦م وقتلوا كثيراً من الصليبيين فاضطر هيو إلى الانسحاب[4].

وفي جمادي الآخرة ٦٦٥هـ/ آذار ١٢٦٧ أمر السلطان ببناء قلعة قاقون قرب الرملة وحول كنيستها إلى جامع وعمرت بمن قطنها[5].

وكذلك في السابع والعشرين من الشهر ذاته توجه السلطان إلى دمشق حل في غزة، هناك قدم عليه رسل الصليبيين يحملون الهدايا مصطحبين عدداً من الأسرى المسلمين، كسا الأسرى وسرحهم إلى ذويهم. وفرض عليهم شروطاً قبلوها وهي المناصفة في صيدا. وأثناء وجودهم عنده بلغه أن الصليبيين أغاروا على مشغرة، ارتعدوا لذلك. ثم رحل إلى دمشق وأرسل جيشاً هاجم عكا فجأة ووصلت طلائعه إلى أبوابها «اليزك» قطع الأشجار وأتلف المزروعات وهدم طاحون كردانه للإسبتار[6] وقتل عدداً كبيراً منهم وحمل الرؤوس إلى السلطان.

---

(١) العيني ٤٢٧.
(٢) السلوك ٥٥٥.
(٣) السلوك ٥٥٥.
(٤) السلوك ٥٥٥ ـ تاريخ الحروب الصليبية ٥٥٢ ـ العيني ص ٨ لم يذكر اسم هيو وكذلك البداية ٢٤٨.
(٥) السلوك ٥٥٧.
(٦) العيني ٩.

قدم عليه رسل سيس محملين بالهدايا وشاهدوا رؤوس الصليبيين مرفوعة على الرماح وأمر بقتل الأسرى وقال لرسلهم «هذه الغارة في مقابل غارتكم على الشقيف».

في رمضان في السنة ذاتها وفدت رسل صور يطلبون تجديد الهدنة فأجابهم السلطان إلى طلبهم، وكتبت الهدنة لصور وبلادها لمدة عشر سنوات وهي تسع وتسعون قرية. واحضروا معهم دية السابق شاهين وهو غلام السلطان كانوا قد قتلوه في صور وأعطوها لأولاده ومقدارها خمسة عشر ألف دينار وأحضروا كذلك عدة أسرى مغاربة[1].

ثم وفدت رسل الاسبتار يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب فأجابهم السلطان وعقد معهم هدنة مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات وأبطلوا ما كانوا يأخذونه من عيناب وهو خمسماية دينار صورية[2].

وكذلك جددت معاهدة الصلح مع ملكة بيروت بعد تصحيح الأمور، فقد غدر أخوها بمراكب المسلمين وأسر تجاراً كانوا يبحرون إلى قبرص، فأعاد المال المسلوب وأطلق التجار فلذلك قبل السلطان بتجديد المعاهدة[3].

في ٣ جمادي الآخرة ٦٦٥هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٧ رحل السلطان إلى غزة وأرسل الجيش لمهاجمة الشقيف، ثم توجه إلى العوجا لمهاجمة مدينة يافا، فقد توفي ملكها جوان الثاني إبلين أثناء رحلة صيد فخلفه ابنه. فلما وصل إلى العوجا وفد عليه رسول صاحب يافا الجديد مع عدة من زعمائها منهم قسطلان يافا فأمر السلطان باعتقالهم[4]. وهاجم المدينة، لاذ الصليبيون بالفرار واللجوء إلى القلعة التي تقع على تل مرتفع كان قد بناها لويس التاسع ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠ م دخل السلطان المدينة بعد قتال دام اثنتي عشرة ساعة مع قلعتها، أعطى سكانها الأمان، أمر بإخراجهم بحراً إلى عكا ثم هدم المدينة مع

(١) السلوك ٥٥٩ ـ العيني ٩.
(٢) السلوك ٥٥٩ ـ العيني ٩ يذكر الهدنة فقط.
(٣) العيني ص ٩ جـ ٢.
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٢ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٤.

قلعتها. جمع بعد ذلك الأخشاب والرخام وأرسله بحراً إلى القاهرة لبناء الجامع الظاهري والرخام للمحراب[1]. وصدر كتاب النصر من إنشاء ابن عبد الظاهر بعد تحرير يافا غادرها السلطان في ١٢ رجب الأربعاء متجهاً نحو الشقيف وعلى قيادة الجيش بجكا العزيزي فنزل عليها في ١٩ منه[2]. كان لها قلعتان، تخلى الصليبيون عن حمايتهما.

تحرير الشقيف

فأخلوا إحداهما وأحرقوها[3]، وقدم الفقهاء والمجاهدون للقتال. نصب السلطان حولها ستاً وعشرين منجنيقاً. وشاءت الظروف أن يقع رسول الصليبيين في عكا بيد المسلمين وهو يحمل رسالة إلى مقدمي حصن الشقيف: «أن المسلمين قاصدون إليكم وهم لا يقدرون على أخذ الحصن إن كنتم رجالاً واحتفظتم به فجدوا في أمركم». ولما قرأه السلطان لجأ إلى الحيلة لأخذ الحصن بأقل خسائر ممكنة، استدعى كاتباً يتقن لغة الصليبيين وأمره أن يكتب كتاباً أرسله إلى الكومندور المقيم بالحصن يحذره من الوزير المقيم عنده ومن جماعة كانوا معه. وكذلك أرسل إلى الوزير كتاباً بالمعنى ذاته يحذره من الكومندور ويطلب فيه أن يأخذ من ملك كان عنده. وصلت الكتب إلى أصحابها فحذر كل منها الآخر وخاف منه ودب الخلاف بينهما، لقد كانت خطة ذكية اتبعها السلطان للقضاء على أعدائه. وشدد الظاهر الحصار، فاضطر السكان إلى الاستسلام وطلب الأمان شريطة ألا يقتل السلطان أحداً. وخرج الوزير مستأمناً.

دخل السلطان الحصن في آخر رجب نهار الأحد ١٥ نيسان، اصطنع الكومندور ومعه أربعماية وثمانون مقاتلاً من رجاله. ثم أرسل النساء والأطفال إلى صور وأمر بهدم الأبنية المستجدة[4].

---

(١) السلوك ٥٦٤ و ٥٦٥ ـ كنز الدرر ١٢٤ و ١٢٥ ـ المختصر جـ ٤ ص ٤ ـ بدائع الزهور ٣٣٠ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٥.

(٢) كنز الدرر ١٢٥ ـ البداية والنهاية ٢٥١ ـ الذهبي ٢٨٣ ـ العيني جـ ٢ ص ٢٠ ـ السلوك ذ٥٦.

(٣) العيني ٢١ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٣.

(٤) السلوك ٥٦٦ ـ كنز الدرر ١٢٦ ـ العيني ٢١ ـ البداية والنهاية ٢٥١ ـ جـ ١٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٧٦ و ٣٧٧.

بعد فتح الشقيف تابع السطان خطته العسكرية باستنزاف قوى العدو وتدميرها أرسل جيشاً أغار على طرابلس ونواحيها. كانت غارة مدمرة إذ قطع الجنود الأشجار وأحرقوا البيوت والكنائس واستولوا على برج وأسروا من فيه. وسيق الأسرى إلى مجلس السلطان الذي أمر بقتلهم[1]. وكتاب النصر نصه ابن العجمي.

ولما وصلت الأنباء إلى حاكم صافيتا وانطرسوس ما أصاب الفرنج في تلك الغارات خشي أن يصيبه ما حل بطرابلس فأرسل يعرض خدماته على السلطان وأطلق الأسرى الذين كانوا محتجزين لديه وعددهم ثلاثماية أسير[2].

فتح أنطاكية

بعد تحرير الشقيف توجه السلطان شمالاً إلى حمص وفيها أمر بإبطال الخمور والمنكرات ثم سار إلى حماة ومنها إلى أفامية[3] دون أن يطلع أحداً على وجهة سيره. وهدفه مدينة أنطاكية[4]. وهناك نظم جيشه وقسمه إلى ثلاث فرق، فرقة عهد بقيادتها إلى الأمير بدر الدين الخازندار، وفرقة إلى الأمير عز الدين أيغان وفرقة بقيادته كانت أنطاكية محصنة جيداً طول سورها ١٢ ميلاً وعدد أبراجها ١٣٦ برجاً وشرفاتها ١٢٤ ألف شرفة[5].

أمر السلطان الخازندار بأن يتوجه إلى السويدية وهي ميناء أنطاكية وأيغان إلى درب بيساك ونزل السلطان على أفامية على أن يكون اللقاء في أنطاكية.

في مطلع رمضان هاجم السلطان المدينة وحاصرها من جميع جوانبها، وأتته رسل الصليبيين يطلبون منه الأمان فردهم خائبين لأنه عزم على أخذ المدينة، وبعث إليهم ينذرهم مدة ثلاثة أيام للاستسلام. فلم يجيبوا، عندئذٍ

---

(١) السلوك ٥٦٦ ـ العيني ٢١ ـ البداية والنهاية ٢٥١ ـ الذهبي ٢٨٣ ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ١٣٦ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٨٢.

(٢) السلوك ٥٦٦ ـ العيني ٢١.

(٣) الذهبي ٢٨٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٨٢.

(٤) الذهبي ٢٨٣.

شن عليها هجوماً صاعقاً. وصعد المسلمون الأسوار قرب القلعة ودخلوا المدينة فلاذ السكان بالقلعة[1].

عاث المسلمون في المدينة قتلاً وأسراً ونهباً. ركز الأمراء قوات على الأبواب لمنع الخروج من المدينة. وكانت مذبحة بين رجالها الصليبيين البالغ عددهم حوالي مئة ألف[2]. بينهم عدد من المسؤولين الزمنين والروحيين.

وكانت ثأراً للمذبحة التي ارتكبها الصليبيون بالمسلمين عندما احتلوها عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م. ولجأ إلى القلعة حوالي ثمانية آلاف مقاتل مع النساء والأطفال، كتب عليهم قضاء بقية أعمارهم أسرى وطلبوا الأمان من السلطان وخرجوا إلى ظاهر المدينة وهم يرتدون اللباس الأبيض وسجدوا جميعاً قائلين: أرحمنا يرحمك الله، فرق لهم السلطان وأمر برفع السيف عنهم[3].

وصعد السلطان إليهم فأمر بربطهم وتوزيعهم على الأمراء. ووجد بداخل المدينة عدد من الأسرى والمحتجزين المسلمين تم تحريرهم[4].

كان حاكم أنطاكية وطرابلس الأمير بوهيموند مقيماً أثناء المعارك في الأخيرة، وقد ارتكب أعمالاً سيئة بحق المسلمين أثناء الغزو المغولي من قتل وأسر[5]. وبعد دخول المدينة أرسل السلطان كتاباً إلى بوهيموند من إنشاء ابن عبد الظافر[6] وعين السلطان حاكماً على القلعة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار، والأمير بيسرى الشمسي وأمر السلطان كذلك بإحضار الغنائم من الأمراء والأجناد، فأحضر الجيش جميع ما خبأ من الأموال والذهب والفضة حتى صارت تلاً وأمر بتوزيعها بين المقاتلين، قسمت النقود بالطاسات ووزع

---

(١) السلوك ٥٦٧ ـ العيني ٢٣ ـ المختصر جـ ٥ ص ٤ ـ كنزم الدرر جـ ٨ ص ١٣٦ ـ البداية والنهاية ٢٥١.

(٢) العيني ٢٣ ـ كنز الدرر ١٣٧ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ـ ذيل مرآة الزمان ٣٨٢ ـ العدد أكثر من ٤٠ ألف.

(٣) السلوك ٥٦٧ ـ العيني ٢٣.

(٤) العيني ٢٣ ـ كنز الدرر ١٣٧ ـ البداية والنهاية ٢٥٢ جـ ١٣ ـ ذيل مرآة الزمان ٣٨٢.

(٥) كنز الدرر جـ ٨ ص ١٣٧ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٢.

(٦) السلوك ٥٦٧ ـ العيني ٢٣.

الغلمان على الناس، فلم يبق إنسان إلاّ وله غلام ووزعت النساء والبنات وكذلك الأطفال فبيع الصغير بـ ١٢ درهماً والجارية بـ خمسة دراهم[١]. بقي السلطان يومين يشرف بنفسه على توزيع الغنائم. أما نصيبه منها فقد رصده لبناء الجامع الذي أمر بتشييده بالحسينية وصرفه لهذا العمل الجليل[٢].

بعد الانتهاء من توزيع غنائم أنطاكية أمر بإحراق القلعة وشب حريق داخل المدينة وبادر الناس إلى أخذ حديد الأبواب ورصاص الكنائس[٣]، وصدر كتاب النصر من إنشاء ابن عبد الظاهر ضربت الأسواق خارج المدينة حيث وفد التجار من كل صوب للشراء.

على أثر هذا النصر المبين باسترجاع أنطاكية، أصاب الذعر حكام الحصون المجاورة فهرعوا يستجدون الأمان من السلطان الظاهر فأمنهم ووجه إلى الحصون الأمير بيليك فتسلمها وأسر من بها في الحادي والعشرين من رمضان[٤].

بعد تحرير أنطاكية اقتنع الداوية بأنه أضحى مستحيلاً الاحتفاظ بقلاعهم وحصونهم في جبال الأمانوس فهجروها دون قتال منها حصن بغراس.

حصن بغراس

وفي ٢٣ رمضان تسلم الأمير أقسنقر الفارقاني استادار السلطان حصن بغراس من الداوية سلماً وكانوا قد هجروا المدينة مع حصنها باستثناء عجوز، ووجد به الأمير بها كثيراً من المحاصيل والذخائر وكذلك ديركوش[٥]. على أثر ذلك طلب الصلح سكان حصن القصير على نصف القلاع المحيطة بالحصن[٦].

---

(١) السلوك ٥٦٨ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٦٥ ـ بدائع الزهور ٣٣٠ ـ العيني ٢٩ ـ من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٨٨.

(٢) العيني ٢٩.

(٣) السلوك ٥٦٨.

(٤) السلك ٥٧٠ ـ العيني ٢٩.

(٥) كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢٧ ـ جـ ٤ ص ٥.

(٦) السلوك ٥٧٠ ـ العيني ٢٩ ـ النجوم الزاهرة ١٤٣.

بعد هذا الانتصار المبين باسترجاع أنطاكية أرسل صاحب عكا أوك بن هنري بن بوهيموند رسله محملين بالهدايا للسلطان وتم الاتفاق على عكا ومناطقها وثلاثين قرية على أن تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع وأن تكون عكا وبلادها مناصفة مع بلاد الكرمل. وبلاد صيدا الوطأة للصليبيين والجبلية للسلطان[١] وعثليت وخمس قرى. والباقي مناصفة وللقرين عشر قرى والباقي للسلطان[٢]. مدة الهدنة عشر سنين. من ضمن الاتفاق إطلاق الأسرى. بعث السلطان القاضي محي الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث إلى صاحب عكا لتوقيع الاتفاق ومعهما هدية عشرون أسيراً من أنطاكية[٣]. دخل الرسولان عكا في ٢٠ شوال ٦٦٦هـ ـ ١٢٦٧ م وقد أوصاهما السلطان بعدم التواضع له لا في قعود ولا مخاطبة. ولما دخلا ظل الملك الصليبي قاعداً على كرسي فبقيا واقفين حتى أمر بإحضار كرسيين فقعد أمامه. وأراد الوزير الصليبي أن يأخذ كتاب السلطان فرفضا حتى أخذه الملك بيده. ولم يوافق على شروط فتركاه دون أن يقسم على المعاهدة.

وسرت شائعات بموت السلطان فأظهر الصليبيون الشماتة وحضر رسولهم يطلب الهدنة. وصادف أن هرب إلى عكا أربعة من مماليك السلطان، رفضوا إعادتهم إلا بفدية، اغتاظ السلطان من ذلك، فلما عرفوا أرسلوا المماليك الفارين، فأمر السلطان باعتقال رسل الصليبيين وأرسل إلى نوابه يبلغهم إلغاء الهدنة وبلغ السلطان أن صليبيي صور يعتدون على التجار. وقد اشتكت إليه إمرأة مسلمة بأن ابنها دخل صور فقتله الصليبيون[٤]، فأمر أقوش بالإغارة على مناطقهم وأرسل الجيش لمهاجمة صور، جرد فرقة لأخذ الغلال وقطع الميرة عنها[٥]. ولما استفسر صاحب صور عن سبب الهجوم لأن هدنة معقودة بين الفريقين، كان الجواب أنهم يتعرضون للتجار[٦].

---

(١) السلوك ٥٧١.

(٢) العيني ٣٣.

(٣) العيني ٣٣ ـ السلوك ٥٧١.

(٤) البداية والنهاية ٢٥٤ ـ ذيل مرآة الزمان ص ٤٠٨.

(٥) السلوك ٥٧٩ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٦.

(٦) البداية والنهاية ٢٥٤.

وفي العام ٦٦٨هـ/١٢٦٩ م بلغ السلطان وهو في الإسكندرية بأن المغول اتفقوا مع الصليبيين ضد المسلمين وهاجموا الساجور قرب حلب، فعاد إلى القلعة وأمر الجيش بالاستعداد ورحل إلى دمشق ليكون قريباً من مناطق المعارك. وفي دمشق وصلته الأخبار بانهزام المغول[(١)].

ثم وردت أخبار تفيد بخروج حملة صليبية إلى الشرق وأن قادتها أرسلوا إلى أبغا بن هولاكو لملاقاته من جهة سيس. وتعرض أسطول الصليبيين لعواصف بحرية عاتية أدت إلى تدمير أكثر سفنه. وصلت أخبار الحملة إلى الصليبيين في الشرق فرحوا بها وخاصة سكان عكا، خيموا خارج المدينة وتوجه فريق منهم إلى جنين وصفد[(٢)] وذلك قبل أن تصلهم أخبار تدمير السفن التي تحمل المقاتلين، كان يقود الصليبيين ابن أخت زيتون.

في هذه الأثناء غادر السلطان دمشق إلى مرج برغوت للإغارة على مناطق الصليبيين واجتمع الجيش الإسلامي في ٢١ ربيع الآخر ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩ م في مرج برغوت. وقادهم السلطان إلى جسر يعقوب حيث وصل إليه آخر النهار وأمر الجيش المخيم في عين جالوت وصفد في اليوم التالي ٢٢ ربيع آخر بالإغارة على الصليبيين، ووضع له خطة بالتراجع بعد أول إشتباك مع العدو[(٣)] واستدراجه إلى كمائن قد أمر بإعدادها مسبقاً. تراجع عسكر صفد وتبعه الصليبيون، فإذا بهم وسط الكمائن، وكان السلطان نفسه في تلك الكمائن، وهاجمهم الأميران إيغان والحاجبي ومعهما أمراء الشام، وكان على ساقة الجيش إيمتش وكندي أمير المجلس ومعهما مقدمو الحلقة. دار قتال عنيف. وسار السلطان لنجدة مقدمي الحلقة[(٤)]. وعندما أدركهم كان العدو قد ولى الأدبار، قتل عدد كبير من الصليبيين منهم نائب فرنسيس في عكا وأسر عدد من قادتهم[(٥)] منهم ابن أخت زيتون استشهد من المسلمين الأمير فخر

---

(١) السلوك ٥٨٤ ـ العيني ٥٧ و ٥٨ ـ النجوم الزاهرة ١٤٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٣٠.

(٢) السلوك ٥٨٥ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٣٠.

(٣) هذه الخطة العسكرية كان أول من وضعها ونفذها هنيبعل في كاناي جنوب إيطاليا ٢١٦ ق. م.

(٤) السلوك ٥٨٥ ـ المختصر جـ ٤ ص ٦.

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٤٥ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٣١.

الدين الفائزي. رجع السلطان إلى صفد ورؤوس القتلى مرفوعة على الرماح، ثم دخل دمشق في ٢٦ شوال ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠ م على هذه الحال وخلع على الأمراء[١].

بعد دمشق سار السلطان إلى حماة ثم إلى كفرطاب فالمرقب. كان الطقس مثلجاً، حتى وصل إلى بلاد الإسماعيلية[٢]، وفرض على زعيمهم نجم الدين حسن بن الشعراني مبلغ ١٢٠ ألف درهم وولاه على بلادهم[٣].

في ٣ جمادي الآخرة هاجم السلطان بنفسه حصن الأكراد على رأس مئتي فارس وصعد إلى الجبل يصحبه أربعون عنهم، حمل عليه الصليبيون هزمهم وأمعن فيهم قتلاً حتى وصل إلى خنادقهم وخاطبهم باستخفاف «خلوا الفرنج (أي الصليبيين) يخرجوا فما نحن أكثر من أربعين فارساً بأقبية بيض». وعاد بعد ذلك إلى مخيمه وترك الخيول تجوب الزرع والمرج حول الحصن[٤].

وبينما السلطان يحاصر حصن الأكراد بلغه بأن الصليبيين هاجموا بمراكبهم ميناء الاسكندرية وأسروا مركبين[٥]. ثم ورد خبر آخر بأن اثنتي عشر مركباً صليبياً دخلوا ميناء الاسكندرية من جديد وأسروا مركباً للتجار أحرقوه وقتلوا من فيه. لم يجرؤ والي الاسكندرية على التصدي لهم لوجود السفن خارج المدينة بأمر من السلطان الذي أمر باتخاذ التدابير المشددة في المدينة منها منع الإضاءة وإغلاق الحوانيت وقتل الكلاب[٦]. ثم رحل السلطان عن حصن الأكراد إلى دمشق في ٢٨ شوال ٦٦٨. وفي دمشق أصدر فرماناً أبطل بموجبه الخمور في المدينة، ونفذ الأمر الشيخ خضرّ، وفتشت دور اليهود والنصارى وكتب القساوسة أنه لم يبق عندهم من الخمور شيء[٧].

---

(١) السلوك ٥٨٥ ـ العيني ٥٨.

(٢) السلوك ٥٨٥ ـ كنز الدرر ١٤٣ ـ العيني ٥٩ ـ المختصر ص ٦.

(٣) الذهبي ٢٨٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٣١.

(٤) السلوك ٥٨٧.

(٥) كنز الدرر ١٤٤ ـ النجوم الزاهرة ٢١٤٨ ـ السلوك ٥٨٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٣١.

(٦) السلوك ٥٨٧ ـ النجوم الزاهرة ١٤٩ ـ البداية والنهاية ٢٥٧ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٣٣.

(٧) الذهبي ٢٨٨.

أثناء إقامة السلطان في دمسق وصلته أخبار تفيد بأن لويس التاسع وعدداً من ملوك أوروبا جردوا حملة صليبية واتجهوا نحو الشرق[١]. اهتم السلطان للأمر كثيراً وأمر بتحصين الثغور وشحنها بالمقاتلين وخاصة الاسكندرية[٢]. وغادر دمشق مسرعاً إلى مصر للاستعداد للتصدي للحملة القادمة[٣].

الحملة الصليبية عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م

بدأ الأوروبيون من جديد يتسابقون للمجيء إلى الشرق للمساهمة في مساعدة الصليبيين المحتلين ففي أيلول ١٢٦٩م/ ٦٦٨هـ خرج جيمس الأول ملك أراجون على رأس أسطول كبير من برشلونة لمساعدة صليبيي الشرق[٤]، فهبت عليه عاصفة بحرية اضطرته إلى العودة من حيث أتى، بينما واصل السير ولداه غير الشرعيين فرناندو سايكز وبدرو فرنانديز على رأس أسطول صغير، ووصلا إلى عكا متشوقين لقتال المسلمين، وأرادا شن غارة مباشرة، فأثناهم عن عزمهما الفرسان الرهبان خشية أن يقفا في كمائن المسلمين خاصة وأنهما يجهلان طبيعة الأرض، فالسلطان قد هاجم عكا في كانون الثاني ١٢٦٩م/ ٢١ ربيع الآخر ٦٦٨هـ بثلاثة آلاف مقاتل وأن عدد الصليبيين في تناقص نتيجة الحروب وليس بإمكانهم تقديم المساعدة لهما. ورغم ذلك شنت الفرقة الفرنسية بقيادة أوليفر تيرميس ابن أخت زيتون مقدم الصليبيين في عكا وروبرت كريسبيك غارة على المناطق الواقعة خلف موتفورت على جنين وصفد. ولاحظ المغيرون أثناء عودتهم الجيش الإسلامي، وفضل أوليفر التسلل بين الحقول للعودة إلى المدينة، فأصر روبرت على القتال ووقع في كمين. ولم ينج إلا القليل وحاول جنود عكا الخروج للمساعدة إلا أن ولدي جيمس الأراغوني عرفا قوتهما ومنعا الجنود من المساعدة وعادا إلى أراجون. وقد أسر ابن أخت زيتون[٥].

---

(١) السلوك ٥٨٧.

(٢) العيني ٦٠.

(٣) السلوك ٥٨٨.

(٤) العيني ٦٠.

(٥) كنز الدرر ١٤٣ ـ العيني ٥٨ ـ الحروب الصليبية ٥٦٧ و ٥٦٨ ـ البداية والنهاية ٢٥٦ لم يشر إلى أسره.

الحملة الصليبية على تونس ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م

بعد تحرير أنطاكية من الاحتلال الصليبي غادر الشرق رئيس أساقفة صور ورئيس الفرسان الهيكليين والاسبتاريين إلى الغرب مستنجدين بالبابا للمحافظة على ما تبقى في أيديهم في الشرق الإسلامي[1]. ولبى دعوتهم الملك لويس التاسع أسير المنصورة سابقاً. ويبدو أن الملك الطليق أضحى محترفاً للعمليات العسكرية وقيادة الحملات إلى الشرق بالرغم من الفشل الذي أصابه في حملة المنصورة السابقة.

وبعد عودته إلى أوروبا بقي الحقد دفيناً في نفسه على المسلمين لما أصابه من الذل والمهانة على أيديهم وأضمر على العودة إلى الشرق للانتقام والثأر. استنفر ملوك أوروبا لهذا الغرض فلبى دعوته ملك انكلترا وملك أسكونيا وملك تورل. وأطلق البابا ـ بعد الاستنجاد به ـ يده في أموال الكنائس لتجهيز الحملة.

جهز الملك لويس حملة صليبية كانت الثامنة. وكان يريد التوجه إلى الشرق. لكن أخوه شارل دي أنجو ملك صقلية رأى أن يسخر الحملة لأطماعه الشخصية باحتلال تونس[2] التي كان يحكمها الحفصيون. كانت تونس تشكل خطراً عبر التاريخ على الجزيرة إذ كانت الحملات تنطلق منها لغزوها منذ أيام الفينيقيين حتى الفتح العربي. واستغل شارل كذلك المجاعة التي حلت في تونس في تلك السنة.

استعد سلطان تونس أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن يحيى بن عبد الوهاب الحفصي[3] وأرسل في الوقت نفسه الرسل إلى الملك لويس يحملون إليه ثمانين ألف دينار. صادرها منهم ولم يستجب لطلباتهم. وزحف نحو تونس في آخر ذي القعدة ٦٦٨هـ/ بجيش تعداده ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل. وصل إلى قرطاجة ونشب قتال مدة ستة أشهر توفي أثناءها الملك

---

(١) من تاريخ سوريا ٢٨٨.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٥٠.

(٣) كنز الدرر جـ ٦ ص ١٠١.

لويس بالحمى[1]. قاد الحملة أخوه وانتهت بإجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الذي دفع مبلغاً من المال إلى شارل. انسحبت الحملة دون تحقيق أهدافها[2] تغنى الشعراء بهذا النصر ونظم الشاعر ابن تونس أحمد بن إسماعيل الزيات قصيدة منها:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير

لك في دار ابن لقمان قبراً وطواشيك منكر ونكير[3]

وصلت بشائر النصر إلى السلطان الظاهر فكتب إلى الأمصار الإسلامية يزف لهم البشرى: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال[4]».

وانتهت حملة الملك لويس الفاشلة كما انتهت مغامراته الفاشلة أيضاً بانتهاء حياته في تونس.

كان السلطان الظاهر يستعد لنجدة تونس عندما وصلته أنباء النصر وانسحاب الصليبيين فتابع عمليات التحرير في الشرق، غادر مصر إلى دمشق في ١٢ جمادي الآخرة ومعه ابنه الملك السعيد وابن حنا، فدخلها في ٨ رجب ٦٦٩ نهار الخميس وغادرها السبت ١٠ رجب بعد أن قسم الجيش بينه وبين ابنه السعيد وبيليك. وافترقوا على أن يلتقوا في مكان محدد لشن غارات تدميرية على جبلة واللاذقية والمرقب وعرقة ومرقية والقليعات وصافيتا والمجدل وأنطرسوس. كانت هذه الحصون هي الهدف. ولما اجتمع الجيش، هاجموا صافيتا والمجدل، ودخلوا صافيتا وحرروها من الداوية الذين غادروها وعددهم حوالي السبعمائة، وتسلم الظاهر الحصون المجاورة لحصن الأكراد منها تل خليفة وذلك تمهيداً لشن الهجوم عليه[5].

(١) الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٧١ ـ من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٨٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٥٠.

(٢) من تاريخ سوريا ٢٨٩.

(٣) كنز الدرر جـ ٨ ص ١٠١ ـ السلوك ٣٦٤ و ٣٦٥.

(٤) كنز الدرر ١٠١ ـ ذيل مرآة الزمان ٥٥٠.

(٥) النجوم الزاهرة ١٤٩ ـ البداية والنهاية ٢٥٩ ـ العيني ٧٠ ـ السلوك ٥٩٠ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٤٤.

حصن الأكراد

ونهار الثلاثاء ١٩ رجب هاجم الملك السعيد بن الظاهر حصن الأكراد[١]. ووفد عليه للمساعدة صاحب حماة وصاحب صهيون وصاحب الدعوة الإسماعيلية نجم الدين. كان له ثلاثة أسوار، ركزت حوله المجانيق وبدأت بقصفه، فتح السور الأول نهار الخميس ٢١ والثاني السبت ٧ شوال والثالث الأحد ١٥ شعبان، وأسر الجبليون والفلاحون، فأطلق السلطان سراحهم[٢].

وسقطت القلعة في ١٦ شعبان، طلب أهلها الأمان فأمنهم السلطان على أن يجلوا عن الحصن فغادره الصليبيون إلى طرابلس في ٢٤ منه. وعين السلطان نائباً له على الحصن وأمره بإعادة تعميره وقاضياً وحول كنيسته إلى جامع[٣].

بعد انتزاع الحصن بعث السلطان رسالة إلى رئيس فرسان الاسبتارية هوغ ريفل صاحب الحصن: «إلى أفرير أول جعله الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر ولا يعتقد أنه ينجي من أمر الله بالقدر ولا يحمي منه محجور البناء ولا مبنى الحجر فعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وخليته وكنت الموفق لو أخليته وتكلفت في حفظه على أخوتك فما نفعوك وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك. وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن وتبقى أو يخدم سعيداً ويشقى»[٤].

بعد استسلام حصن الأكراد أرسل مقدم والاسبتارية كمندور صاحب أنطرسوس يطلب الصلح من السلطان فصالحه على أنطرسوس فقط، واستعاد جميع ما استولى عليه الصليبيون في عهد الناصر الأيوبي، وأن يتنازل عن

---

(١) النجوم الزاهرة ١٥٠ ـ المختصر جـ ٤ ص ٦ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٤٤.

(٢) ذيل مرآة الزمان ٤٤٥.

(٣) السلوك ٥٩٠ ـ العيني ٧١ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٧٠ ـ المختصر جـ ٤ ص ٦ ـ النجوم الزاهرة ١٥١ ـ البداية ٢٥٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٤٥.

(٤) العيني ٧١.

جميع الضرائب التي كانت مفروضة على المسلمين وأن تكون بلاد المرقب وأموالها مناصفة بين السلطان والاسبتارية وأن يتوقف البناء في المرقب. عقد الصلح نهار الاثنين مستهل رمضان ٦٦٩ ومدته عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام. وبموجبه تسلم السلطان عدة حصون أخلاها الصليبيون[١].

حصن عكار

كان سقوط حصن الأكراد مقدمة لسقوط حصن عكار إذ كان يشكل خط الدفاع الأمامي بوجه المسلمين عن عكار. هاجمه السلطان نهار الاثنين ٢٢ رمضان، نصب حوله المجانيق وأمر بقصفه. استبسل سكانه بالمقاومة والدفاع عنه، وشدد السلطان الهجوم عليه حتى طلبت حاميته الأمان. ورفعت الرايات السلطانية فوق أبراجه وخرج الغرباء منه واحتفل السلطان بالعيد فيه. ثم أرسل كتاباً إلى صاحب طرابلس يتوعده فيه.

وقد استشهد أمام الحصن الأمير ركن الدين منكورس إذ سقط عليه حجر منجنيق بينما كان يصلي[٢]. وقد نظم القاضي محيي الدين عبد الظاهر قصيدة جاء فيها

يا مليك الأرض بشرا ... ك فقد نلت الإرادة
إن عكار يقينا ... هي عكا وزيادة[٣]

كان حصن عكار يشكل خطراً على المسلمين فبتحريره زال ذلك الخطر. ووجه السلطان اهتمامه نحو طرابلس.

بعد سقوط حصن الأكراد أرسل صاحب طرابلس إلى السلطان يسترضيه وبعث إليه السلطان الأتابك بلبان الرومي يحمل إليه عرضاً على أن يكون للسلطان نصف أعمال طرابلس ودار فيها وأن يعطى خراج جبلة واللاذقية منذ يوم خروجهما من الملك الناصر حتى هذا التاريخ، وأن يدفع نفقات الجيش

---

(١) السلوك ٥٩٢ ـ العيني ٧٢ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٤٨.

(٢) السلوك ٥٩٢ ـ العيني ٧٦ و ٧٧ ـ المختصر ص ٦ ـ مرآة الجنان ١٧٠ ـ النجوم الزاهرة ١٥٢ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٤٨.

(٣) العيني ٧٧ ـ المختصر ٦.

الإسلامي. رفض صاحب طرابلس هذه المطالب وحصن طرابلس وقرر القتال. نصب السلطان المجانيق حولها. ثم ترددت الرسل للصلح بين الفريقين وكان السلطان مع الوفد الإسلامي متنكراً ليطلع على تحصينات المدينة، ويلجأ إليه الوفد سراً في درس المطالب والموافقة عليها[١].

وتقدم الوفد الإسلامي بعرض على أن تكون عرقة وجبلة وأعمالها للبرنس وأن يكون ساحل أنطرسوس والمرقب وبانياس بينه وبين الداوية التي كانت لهم خاصة وبازين وحمص القديمة تعود للظاهر وأن تكون عرقة وأعمالها وهي ست وخمسون قرية صدقة من الملك الظاهر. ورفض صاحب طرابلس هذا العرض أيضاً. ولما بلغ الظاهر ذلك صمم على مطالبه وعزم على أخذ طرابلس وجهز الجيش لهذه المهمة.

وحدث ما لم يكن متوقعاً، فقد وصلته الأخبار بمجيء حملة صليبية إلى الشرق عندها اضطر السلطان للتراجع عن طرابلس وخيم قريباً منها وبعث إلى صاحبها الأتابك والأمير الدوادار فاجتمعا بصاحبها وتم الاتفاق على هدنة مدتها ١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ أيام[٢]. تبدأ نهار الأربعاء ٨ شوال.

ودفع السلطان ثلاثة آلاف دينار مصرية لفك أسرى المسلمين أرسلها مع القاضي شمس الدين الأخنائي المشرف على الخزينة والأمير فخر الدين ابن جلبان. وعاد السلطان إلى حصن الأكراد حيث أعطى التوجيهات لحاكمه[٣].

واستولى السلطان على حصن القليعة وهو تابع للإسماعيلية في ١١ شوال وعاد إلى دمشق وأثناء ذلك دخل الشيخ خضر الكردي وأصحابه إلى كنيسة اليهود وصلوا فيها وأزالوا ما فيها من شعائر اليهود[٤]. ثم رحل إلى صفد حيث حمل منها المجانيق إلى القرين قرب صفد وضرب عليه الحصار حتى استسلم في ٢ ذي القعدة ٦٦٩هـ[٥]. ومنه تابع سيره حتى أبواب عكا.

---

(١) من تاريخ سوريا ٢٨٨.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٥٢ ـ البداية والنهاية ٢٥٩ ـ الذهبي ٢٩٠ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٥٠.

(٣) السلوك ٥٩٣ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٧١.

(٤) العيني ٧٩.

(٥) النجوم الزاهرة ١٥٣ ـ المختصر ٦.

لاذ الصليبيون بالصمت[1]. عاد إلى القرين وهدم القلعة. ثم هاجم اللجون[2].

الحملة على قبرص

أثناء حصار حصن الأكراد غادر ملك قبرص بجيشه إلى عكا لمساعدة أهلها، فاغتنم السلطان هذه الفرصة وهاجم قبرص بأسطول من سبع عشرة سفينة فيها رئيس مصر ناصر الدين بن منصور ومحمد بن إبراهيم رئيس الاسكندرية وعلوي بن أبي المجد رئيس دمياط وجمال الدين بن حسون رئيس الجميع. سار الأسطول بقيادة جمال الدين. ولدى وصول السفن إلى ميناء النمسون (ليماسول) ليلاً تقدم المركب الأول للدخول إلى الميناء فاصطدم بالصخور. وهبت عليه عاصفة دمرت إحدى عشرة سفينة وقع بحارتها في الأسر وعددهم ١٨٠٠ رجل. ونجت بقية السفن وعادت إلى مصر وعليها ناصر الدين وابن حسون[3].

أرسل النائب الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني يخبر السلطان بذلك، وصلت الرسالة إلى السلطان في ١٠ ذي القعدة ٦٦٩، فأمر بتجهيز غيرها[4].

وحضر رسول ملك قبرص يحمل رسالة إلى السلطان «إن صاحبي يسلم عليك وقال لك قد أخذت مراكبك بمن فيها». فكان جواب السلطان «قل له لا تفرح بهذا. فما أخذتها بسيفك ولو سلمت كانت أخذت جزيرتك بحول الله وقوته. وقد أخذت في سفرتي ١٤ حصناً»[5].

وأرسل صاحب صور جون منتوفورت رسلاً لطلب الصلح. تم الاتفاق على أن يكون للصليبيين عشرة مناطق فقط وللسلطان خمسة يختارها وبقية البلاد مناصفة. وتم عقد الهدنة[6].

---

(١) النجوم الزاهرة ١٥٣.

(٢) السلوك ٥٩٣ ـ العيني ٧٣ و ٧٤.

(٣) النجوم الزاهرة ١٥٤ ـ العيني ٧٤ ـ البداية والنهاية ٢٥٩ ـ ذيل مرآة الزمان ٤٥٣.

(٤) النجوم الزاهرة ١٥٥ ـ البداية والنهاية ٢٦١.

(٥) كنز الدرر ١٦٢ ـ العيني ٧٤ و ٧٥.

(٦) السلوك ٥٩٥ ـ العيني ٨١.

واستقر السلطان في مصر وأشرف على صناعة السفن، انتهز الصليبيون إقامة السلطان في القاهرة فأغاروا على نواحي الشاغور سلبوا وأحرقوا المحاصيل، وكان صليبيو عكا هم الذين أقدموا على هذا العمل[١]. ثم بلغ السلطان أن صليبيي عكا قتلوا أسرى مسلمين خارج المدينة فأمر بقتل أسرى عكا وعددهم حوالي المئة[٢].

الحملة البريطانية ١٢٧١م ـ ٦٧٠هـ

أراد ملك بريطانيا ادوار أن يجرب حظه في المغامرة بالشرق فجهز حملة أراد أن يدعم بها لويس التاسع ملك فرنسا.

غادرت الحملة بريطانية في صيف ١٢٧١م/ ٦٧٠هـ وتعدادها ألف رجل. ثم أتت الامدادات بقيادة أخيه ادموند دوق لانكستر تصحبه قوة من بريتانيا وكذلك من الأراضي المخفضة بقيادة تبدالو فيسكونتي رئيس أساقفة لييج[٣].

كان الملك إدوار يريد الالتحاق بالملك لويس في تونس، غير أنه غير طريقه عندما بلغه نبأ وفاة الملك لويس، فتوجه إلى الشرق ونزل في قبرص. واضطر إلى قضاء الشتاء في الجزيرة. وفي الربيع توجه إلى عكا فوصل إليها في ٩ أيار ١٢٧١م/آخر رمضان ٦٧٠هـ، ومعه ثلاثماية فارس وثلاثون مركباً. وكان قد سبقه أستاداره وهو أخوه وكان يريد الحج إلى القدس. وفي عكا انضم إليه ملك قبرص هيو وصاحب طرابلس بوهيموند[٤].

استاء ملك الإنكليز من أوضاع الصليبيين في الشرق، إذ كان يأمل في توحيدهم، وأن يستفيد كذلك من مساعدة المغول لشن حرب ضروس على المسلمين. ولكن تبين له أن البنادقة يتعاملون تجارياً مع السلطان. وأن الجنويين يحاولون أن يلعبوا دوراً في هذه التجارة. وكان يأمل أن يتبع فرسان

---

(١) السلوك ٥٨٦.

(٢) العيني ٨٠ ـ البداية والنهاية ٢٥٨.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٧٤.

(٤) تاريخ الحروب الصليبية ٥٧٤.

قبرص ملكهم إلى الساحل الشرق للقتال. وعندما وصل بعضهم إلى عكا أصر أن مهمته تقتصر في الدفاع عن قبرص فقط[١].

أما بالنسبة للمغول فقد خاب أمله أيضاً، إذ أرسل سفارة إلى الإليخان من ثلاثة رجال ريجينالد رسل وجودفري ويليس ويوحنا باركر. وقد وافق أباقا بإرسال المساعدة الممكنة. وهاجم المناطق الشمالية من بلاد الشام. كان السلطان في دمشق فأرسل الجيش نحو الشمال لصد غارات المغول في ١٢ ت ٢ ١٢٧١م/ ربيع أول ٦٧١هـ. فعاد المغول إدراجهم خشية الصدام مع السلطان[٢].

اغتنم إدوار غياب الجيش الإسلامي في شمال بلاد الشام حيث كان يتصدى للمغول وهاجم سهل شارون في فلسطين. كان الملك الإنكليزي ضعيفاً بحيث أنه لم يستطع الاستيلاء على حصن قاقون الصغير. لذلك اقتنع أنه بحاجة إلى قوة كبيرة لاسترداد ما حرره المسلمون. اضطر إلى طلب الصلح من السلطان للمحافظة على ما تبقى بأيدي الصليبيين في الشرق من الحصون خاصة وأن السلطان بعد أن انحسر الخطر المغولي أصبح بإمكانه أخذ تلك الحصون، وقد اتفق مع شارل أنجو وهو الوحيد الذي يستطيع أن يقدم مساعدة فعالة لصليبيي عكا. ووجه شارل اهتمامه للاستيلاء على القسطنطينية.

عند ذلك اتصل الملك إدوار بالسلطان وعقد معه معاهدة في قيسارية مدتها ١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ ساعات احتفظ الصليبيون في عكا بموجبها بممتلكاتهم التي بقيت بأيديهم في الساحل من عكا إلى صيدا وأن يسمح لهم باستخدام طريق الحج إلى الناصرة[٣].

ورغم توقيع الهدنة فقد قرر السلطان التخلص من إدوار لكي يضع حداً لمغامرات الأوروبيين في الشرق، فأرسل إليه أحد الحشاشين على أنه مسيحي شرقي، دخل حجرته وطعنه بخنجر مسموم لم يقض عليه. استنكر السلطان

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٥٧٤.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ٥٧٧ ـ المختصر جـ ٤ ص ١٤.

(٣) الحروب الصليبية ص ٥٧٨.

هذا العمل بعد الفشل وأرسل إليه وفداً يهنئه بالسلامة[١].

وأخيراً بعد مغامرة فاشلة اضطر الملك إدوار للعودة عن الشرق يجر أذيال الفشل وعاد إلى بلاده في ٢٢ أيلول ١٢٧٢م/ ٦٧١هـ[٢].

وكانت حملة إدوار هي الأخيرة في العصور الوسطى على الشرق.

وبعد ذلك أصدر السلطان في جمادي الآخرة ٦٧٩هـ أمراً قضى بإبعاد أهل الذمة عن الخدمة في الدولة وعليهم اعتناق الإسلام وإلا صلبوا فأسلموا كرهاً[٣].

كانت عكا هدف السلطان لموقعها الجغرافي فهي قريبة من مصر ومن القدس وأصحبت بعد استرجاع الأخيرة عاصمة صليبيي الشرق فإذا سقطت انتهى وجودهم وكان سكانها ينتهزون الفرص للإغارة على مناطق المسلمين، فأمر بتجهيز الجيش للهجوم عليها ولازم بنفسه دار الصناعة حتى تم إنجاز السفن اللازمة وعددها أربعون مركباً[٤]. وسار بعد ذلك إلى الكرك.

وفي مطلع شهر ربيع الأول ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م جال السلطان في شمال بلاد الشام وتفقد حصني الأكراد وعكار[٥]. وعاد إلى دمشق ومنها أرسل إلى مصر كتاباً يخاطب فيه الأمراء الكبار ولدكم وللبقية أخوكم ووالدكم يسلم عليكم ويتشوق إليكم..

وأما الفرنج فعملوا سلالم من حديد وعزموا مهاجمة صفد ووردوا بيروت إن صاحب مرقية (قرب حمص على الساحل) الذي أخذنا بلاده توجه إلى التتار (المغول) مستصرخاً وسيرنا وراءه فيداوية... وقتلوه.

وحدث أن هاجم الصليبيون حصن قاقون وقتلوا الاستادار حسام الدين

---

(١) الحروب الصليبية ٥٧٩ ـ العيني ٩٤ ـ من تاريخ سوريا ٢٩٠ يذكر أن الذي أرسل الإسماعيلي هو حاكم يافا الذي خدعه بأنه سوف يتنصر.

(٢) الحروب الصليبية ٥٧٩.

(٣) البداية والنهاية ٢٩٤ جـ ١٣.

(٤) البداية والنهاية ٢٦١ ـ السلوك ٥٩٨ ـ ٩٠.

(٥) المختصر جـ ٤ ص ٧.

وجرح الأمير الجالق[1]، وكان السلطان في حلب يستعد لقتال المغول الذين اتفقوا مع الصليبيين وشنوا الهجوم الأخير على شمال سوريا.

سار السلطان من حلب بسرية تامة حتى لا يعلم بقدومه الصليبيون ووصل إلى دمشق ومعه أسرى مغول من حراة. وسار الأمير أقوش الشمسي من عين جالوت وتصدى للصليبيين الذين لاذوا بالفرار عن حصن قاقون. وطاردهم الجيش وأنقذ منهم الأسرى التركمان بعد أن قتل عدداً كبيراً بلغ عدد الخيول القتلى خمسماية حصان.

ثم خرج السطان من دمشق في ٣ جمادي الأولى على رأس الجيش إلى عكا. وصادف أن هطل المطر غزيراً أعاق تقدمه فاضطر للعودة، وسرح عسكر الشام إلى دمشق واتجه نحو مصر فوصل إلى القاهرة في ٢٣ منه[2].

وقدم على السلطان رسول ملك تونس يحمل إليه هدية ورسالة لم تتناسب عباراتها مع مكانة السلطان الظاهر، فأمر بتوزيع الهدية. وكتب إليه مستنكراً استخدامه «الفرنج» والتظاهر بالمنكرات. وأنه كان جباناً عندما هاجمه الصليبيون ولم يخرج لجهادهم. وقال له أي لملك تونس «مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين».

ثم وفدت على السلطان رسل رجار صاحب صقلية يطلبون الصفح عن صاحب عكا. استقبلهم السلطان بدار الصناعة فهالهم ما رأوا.

وفي الثالث من شعبان وفدت عليه رسل الصليبيين بعكا وهو مقيم بالسواد بنواحي البلقاء يطلبون الهدنة، فأرسل إليهم الأمير فخر الدين اياز المقري والصدر فتح الدين الكاتب في ٢١ رمضان. ونزل بعد ذلك في قيسارية وعقد الهدنة مع الصليبيين مدتها ١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ ساعات تبدأ نهار ٢٢ رمضان ٦٧٠هـ. وخرج أهالي عكا لمشاهدة جيش السلطان يلعب بالرمح[3].

---

(١) العيني ٩١ ـ البداية والنهاية ٢٦١ ـ السلوك ٦٠٠.

(٢) السلوك ٦٠١.

(٣) السلوك ٦٠١ ـ العيني ٩٢ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٥٧ ـ البداية والنهاية ٢٦٢.

وبلغ السلطان أن فرنج مرسيليا أسروا مركباً على متنه منكوتمر ملك المغول والمترجم من قبل السلطان وأرسلوهم إلى عكا. غضب السلطان وأرسل إلى صليبيي عكا يطلبهم فأطلقوا سراحهم فوراً. كان ذلك سنة ٦٧١ هـ[١].

وكان ملك الكرج يريد الذهاب إلى القدس بزي راهب فألقي القبض عليه وأرسل إلى السلطان الذي أمر بسجنه في دمشق[٢].

وعمل السلطان على تحرير أسرى الأسطول في ميناء نمسون «ليماسول» وكان قد أرسله أثناء حصار حصن الأكراد. وكان الصليبيون قد أسروا بحارة الشواني المصرية لدى هبوب العاصفة عليها وتحطيمها. أرسل السلطان الأمير فخر الدين المقري الحاجب إلى صور لافتداء الأسرى فباع الصليبيون القادة والرماة إلى طائفة منهم فعادوا بهم أسرى افتداهم السلطان، واحتفظوا بالرؤساء وهم ستة منهم رئيس الاسكندرية ورئيس دمياط وسجنوهما في عكا. فأرسل السلطان إلى الأمير سيف الدين يأمره باستعمال الحيل لاستخلاصهما. فرشا الأمير حراس السجن وخاصة ابن جفرين ورشاه بألف دينار وأدخل إليهما مبارد ومناشير استعملاها في نشر الأبواب وخرجا من الجب الذي كانا مسجونين فيه، وسارا إلى خيل أعدت لهما ورحلا إلى القاهرة دون أن يعلم بذلك الصليبيون. ولما عرفوا بالعملية نشبت الفتن في عكا[٣].

وهاجم السلطان حصن القصير يقع بين حارم والمعرة يقيم فيه قسيس محترم لدى النصارى وهو حصن لبابا روما ويتحكم بمنطقة الفوعا. وكان سكانه قد طلبوا الهدنة عند فتح أنطاكية فاستسلم الحصن[٤].

وفي سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م توفي بوهيموند بن بوهيموند صاحب طرابلس، فأرسل عمه ملك قبرص ابنه معزياً بالنيابة عنه إلى طرابلس، وكذلك لمقابلة السلطان ليطلب منه إرسال بعض أعوانه لتجديد الهدنة، أرسل إليهم

---

(١) العيني ٩٣.

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٣.

(٣) النجوم الزاهرة ١٦٥ ـ السلوك ٦١٥ ـ البداية والنهاية ٢٨٧ ـ العدد ٢٠ أسيراً ـ ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ص ٨٦.

(٤) العيني ١٣٤.

السلطان الأمير سيف الدين بلبان الرومي الداودار، وفرض عليهم دفع عشرين ألف دينار صورية[1].

وفاة السلطان الظاهر بيبرس

في سنة ٦٧٥ هاجم السلطان الابلستين وهي مدينة في آسيا الصغرى وألحق الهزيمة بالمغول. وعاد إلى حارم ٣ ذي الحجة ومنها إلى دمشق. ونزل في في ١٥ محرم ٦٧٦ بالقصر الأبلق غرب دمشق وهناك وردت عليه الأخبار بأن أبغابن هلاوون سار يريد بلاد الشام. فأعلن السلطان النفير. ثم وردت الأخبار بتراجعه.

واستمر السلطان مقيماً بالأبلق ومعه كبار رجال الدولة[2]. وهو في أحسن حال. وكأن الدنيا قد جمعت في يده والقدر يخدمه لبلوغ مرامه.

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فإذا بالعافية قد شمرت الذيل والمنية قد دنت. وإذا حضر أمر الله فلا مرد لقضائه وعجز الطب عن شفائه. فبعد مرض دام ١٣ يوماً[3] انتقل السلطان إلى الرفيق الأعلى نهار الخميس ٢٧ محرم بعد الزوال بالقصر الأبلق ودفن بدار العقيقي داخل باب الفرح في ٥ رجب[4].

كان له من العمر حوالي ستاً وخمسين سنة إذ كانت ولادته سنة ٦٢٠هـ حكم ١٧ سنة و ١٢ يوماً، لم تغمض له عين خلالها وهو يجاهد لتحرير البلاد من رجس الاحتلال الصليبي رجل قلما يجود الزمان بمثله. وخلفه ابنه السعيد ناصر الدين محمد بركة.

---

(١) العيني ١٣٨ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٧٧ ـ البداية والنهاية ٢٧٥.

(٢) مرآة الجنان ١٧٥ ـ ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ص ١٧٧ يشيرإلى هزيمة المغول.

(٣) السلوك ٦٣٦ ـ بدائع الزهور ٣٣٩ ـ النجوم الزاهرة ١٧٥ ـ المختصر ١٠.

(٤) السلوك ٦٤٦ ـ العيني ١٣٨ ـ النجوم الزاهرة ١٧٧ ـ البداية والنهاية ٢٧٥.

الفصل السابع

السلطان السعيد ناصر الدين محمد بركة بن الظاهر بيبرس

تولى الحكم بعد وفاة والده في ٢٦ صفر نهار الخميس[١] وبقي في الحكم مدة سنتين وشهرين و ٨ أيام لم تجر في عهده أحداث مهمة أو معارك مع الصليبيين. ثم تآمر عليه الأمراء وعلى رأسهم الأمير سيف الدين قلاوون صديق والده، فعزلوه في ٧ ربيع الأول ٦٧٨ وأرسلوه إلى الكرك[٢]. وعرضوا الملك على الأمير قلاوون وخاطبوه بذلك، فتردد في القبول بحجة أنه لم يخلع السعيد طمعاً بالسلطة ولكن حفظاً للنظام، وأباء الجيوش الإسلامية من أن يقودها الصغار الذينْ يحتقرون الكبار ويضيعون مصالح الجيش. والأولى ألا يخرج هذا الأمر من بيت الظاهر بيبرس. كانت هذه حججاً واهيةً تذرع بها قلاوون لبلوغ السلطة. فبعد خلع السعيد نصب قلاوون مكانه أخاه السلطان بدر الدين سلامش ولقب بالعادل وخطب له وضربت السكة باسمه[٣]، وكان له من العمر سبع سنوات وأشهر[٤].

استقر قلاوون بالأتابكية واستوزر برهان الدين الخضر، وأخذ قلاوون يتصرف بالأمور لصالحه، عين أنصاره في المراكز المهمة في الدولة[٥] وخاصة القلاع.

كان عمل قلاوون إبعاد السعيد والمجيء بالطفل سلامش مقدمة لاستلام

---

(١) العيني ١٨٥ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٧٥ ـ البداية والنهاية ٢٨٨.
(٢) وفيات الأعيان ١٥٨ ـ المختصر جـ ٤ ص ١٢ ـ ذيل مرآة الزمان جـ ٤ ص ٥.
(٣) المختصر جـ ١٢ ـ النجوم الزاهرة ٢٨٧ جـ ٧ بادئع الزهور ص ٣٤٧ ـ البداية والنهاية ٢٩٠.
(٤) السلوك ٦٥٦ ـ بدائع الزهور ٣٤٦ ـ البداية والنهاية ٢٨٨ ـ ذيل مرآة الزمان ص ٥.
(٥) النجوم الزاهرة ٢٨٧.

الحكم. والذرائع التي ادعاها واهية، إذ عزل شاباً وأتى بطفل صغير. ولما ثبت إقدامه في الحكم عزل السلطان سلامش بناء على طلب الأمراء والقضاة والأعيان؛ إذ لا فائدة منه ترجى وامتهان لكرامة الرعية وأنه يحل محله قلاوون فاستجاب قلاوون لطلب رجال الدولة من أنصاره.

وخلع سلامش وتسلم الحكم بعده[1] نهار الأحد ٢٠ رجب ٦٧٨ وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه واستوزر مجد الدين بن لقمان كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء. وقد أيدته دمشق[2].

عهد السلطان قلاوون «المنصور»

تسلم الحكم السلطان قلاوون وكان عليه أن يتابع الجهاد الذي بدأه سلفه ورفيقه أيام الشقاء والهناء الظاهر بيبرس.

وبدأت العملية العسكرية لطرد ما تبقى من فلول الصليبيين في الشرق سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٧٩م إذ استأذن سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطان في حصن الأكراد للإغارة على حصن المرقب لما ارتكبه سكان ذلك الحصن من الشر بحق المسلمين عندما قدم المغول إلى شمال سوريا، إذ كان كثير من المسلمين قد فروا أمام المغول فتصدى لهم سكان المرقب وقتلوا وأسروا عدداً من اللاجئين، فكانت حملة سيف الدين تأديباً لهم على أعمالهم[3].

وفي سنة ٦٨٠هـ غادر السلطان قلاوون القاهرة إلى ساحل فلسطين ونزل بمنزلة الروحا[4]. وهناك وفدت عليه رسل من الصليبيين يطلبون تجديد الهدنة استشار الأمراء وحصل الاتفاق على ذلك[5]. فوافق على عقد الهدنة

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٨٧ ـ بدائع الزهور ٣٤٧ ـ ذيل مرآة الزمان جـ ٨.
(٢) العيني ٢٢٦ ـ النجوم الزاهرة ٢٨٨ ـ المختصر ١٢ ـ وفيات الأعيان ١٥٨ ـ ذيل مرآة الزمان جـ ٤ ص ٨ و ٩.
(٣) المختصر جـ ٤ ص ١٤ ـ تشريف الأيام ص ٤٠.
(٤) العيني ٢٦٣ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٠٠.
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٠٠.

١٠ سنوات و ١٠ أيام و ١٠ ساعات تبدأ نهار السبت ١٣ محرم ٦٨٠هـ/ ١٢٨٠[١].

وكذلك مع بوهيموند الثاني صاحب طرابلس لمدة عشرة سنوات تبدأ نهار ٢٧ ربيع الأول وعاد رسل الصليبيين إلى مناطقهم. ثم توجه الأمير فخر الدين اياز المقري الحاجب لأخذ توقيع الصليبيين فوقع مقدم الاسبتارية[٢].

وفي سنة ٦٨٢ عقد السلطان هدنة مع صليبيي عكا مدتها ١٠ سنوات تبدأ ٥ ربيع الأول[٣] وقد حضر نفران من الديوية ومن الاسبتارية والملوكية منهم السنجيل أود كفيل عكا وكليام ونيكول اللورن والمرشان كوران.

وفي تلك السنة هاجم هيو الثالث لوزجنان ملك قبرص الساحل المحتل من قبل الصليبيين يريد استرداد حقه في الساحل. هبت عليه عاصفة اضطرته للنزول في بيروت ومنها أغار على تلك الجهات، واشتبك مع المسلمين الذين كانوا مستعدين. وكمن له سكان جبل الخروب وهزموه وغنموا كثيراً من حيوانات النقل، فاضطر للإنسحاب بحراً نحو صور بعدما فقد من جيشه عدداً كبيراً وأسر منه ثمانون رجلا[٤].

استرجاع حصني المرقب ومرقية

وفي سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م غادر السلطان القاهرة إلى دمشق، وصل إليها في ٢٢ محرم ومنها تابع سيره إلى حصن المرقب التابع للاسبتاريين، وهو حصن حصين مرتفع كان الملوك السابقون يتجنبون مهاجمته. حاصره السلطان وركز حوله المجانيق الكبيرة فاضطر سكانه للاستسلام وطلب الأمان بعد حصار دام ٣٨ يوماً نهار الجمعة ١٩ ربيع الأول الساعة الثامنة صباحاً، وأمر بإخراج من فيه إلى أنطرسوس يحملون ما يقدرون عليه إلا السلاح وقد حرص على تسلمه سالماً دون تدمير لأن بناءه من جديد يكلف كثيراً وكان

(١) العيني ٣٦٣ ـ تشريف الأيام ٨٢.
(٢) السلوك ٦٨٥ ـ العيني ٣٦٣ و ٢٨٩ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٢ ـ تشريف الأيام ٨٢.
(٣) السلوك ٧١٣ ـ العيني ٢٩٤.
(٤) السلوك ٧١٦ ـ العيني ٣٠٢ ـ تشريف الأيام ٤٨.

للسلطان ما أراد[1]. وسبب فتحه أن المسلمين المجاورين له اشتكوا للسلطان من تعديات النصارى وأعمالهم العدوانية[2] وبالقرب من المرقب يقع حصن مرقية وهو برج يقع في البحر ما بين أنطرسوس والمرقب تابع للهيكليين. وعندما حضر رسل ملك طرابلس طلب السلطان تدمير الحصن وإطلاق سراح الأسرى المحتجزين فيه الذين كانوا لدى صاحب جبيل، فأحضروا الأحياء واعتذروا عن تدمير البرج، صمم السلطان على تدميره إشتراه من صاحبه ودمره وحرر من بقي فيه من الأسرى[3].

ونقض صليبيو طرابلس الهدنة المعقودة معهم سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م فأقدموا على اعتقال جماعة من التجار المسلمين وغيرهم من عابري الطرق فأصبح لديهم أسرى. وكانوا قد بعثوا إلى السلطان بعد تحرير حصن المرقب بهدية وصالحوه على إلا يحتفظوا بأسير مسلم عندهم ولا يتعرضون للتجار ولا يقطعون الطرق على المسافرين. عندئذ بدأ السلطان بالاستعداد لتحرير طرابلس[4].

تحرير طرابلس ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م

في مطلع سنة ٦٨٨ قرر السلطان قلاوون استرجاع طرابلس، غادر القاهرة في ١٥ محرم بعد أن استخلف عليها ابنه الأشرف خليل والأمير بيدرا نائباً عنه ووزيراً. أرسل إلى نوابه في بلاد الشام يأمرهم بتجهيز الجيوش لقتال الصليبيين في طرابلس. وصل إلى دمشق في ١٣ صفر وغادرها في العشرين منه إلى طرابلس بجيش كبير مزود بالأسلحة اللازمة لاسترجاعها[5]. وحدث خلاف بين صاحب طرابلس وصاحب جبيل بارثلميو وكان من أصحاب حصن مرقية الذي دمره السلطان. اتصل بالسلطان وطلب منه المساعدة على تملك

(١) السلوك ٧٢٧ و ٧٢٨ ـ العيني ٢٣٨ و ٢٣٩ ـ بدائع الزهور ٣٥٤ ـ تشريف الأيام ٧٧. النجوم الزاهرة ٧١٥ ـ المختصر ٢١ ـ البداية والنهاية ٣٠٥.

(٢) المختصر ٢١ جـ ٤ ذيل مرآة ٢٤١ ذيل مرآة الزمان جـ ٤ ص ٢٤٠ و ٢٤١.

(٣) البداية والنهاية ٣٠٥ ـ النجوم الزاهرة ٣١٧ ـ ذيل مرآة ٢٤١.

(٤) السلوك ٧٤٦ ـ العيني ٢٧٩.

(٥) السلوك ٧٤٧ ـ العيني ٣٨٠.

طرابلس على أن تكون مناصفة، ورفض الصليبيون المشروع لجأ عندها بارثلميو إلى التسويف والمماطلة حتى عزم السلطان على أخذها بالقوة[1].

كانت طرابلس محصنة جيداً إذ كان سورها من العرض بحيث يمر عليه ثلاة فرسان ممتطين خيولهم. وأسرع الفرسان الاسبتاريون والهيكليون وأهل بيزا والبندقية في الشرق للنجدة إذ تهددت مصالحهم وضياع طرابلس من أيديهم يقضي على مصالحهم ونفوذهم في الشرق. ووصلت إليها نجدة من أربعة شواني من قبرص يقودها شقيق الملك[2].

وصل السلطان إلى طرابلس نهار الجمعة مستهل ربيع الأول ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م ونصب عليها ١٩ منجنيقاً يرمي عليها ألف وخمسماية رجل من الحجارين والزرّافين، وشن عليها هجوماً عنيفاً وهو يرميها بالمجانيق ويقترب من الأسوار حتى وصل إليها ونقبها. عندها أعلن سكان المدينة الاستسلام الساعة السابعة من نهار الثلاثاء ٤ ربع الآخر بعد حصار دام ٣٤ يوماً فر أهلها إلى الجزيرة المقابلة لها وفيها كنيسة سنطماس فغرق كثير منهم في الميناء ولحق بهم الجيش وأمعن فيهم قتلاً وأسراً أسروا السناء والأطفال وقتلوا الرجال حتى امتلأت الجزيرة بجثث القتلى، وغنم كثيراً. وقد ظفر الغلمان الأوشاقية بأعداد من الأسرى الذين كانوا قد هربو بحراً فهبت عليهم عاصفة أعادتهم إلى الساحل فألقاهم القدر في الأسر[3].

أصبح عدد الأسرى كبيراً بحيث صار في بيت سلاح السلطان «الزردخانة» ألف ومئتي أسير. وكانت الغنائم كثيرة. فطرابلس كانت مزدهرة، فيها ٤ آلاف نول.

وأمر السلطان بإطلاق سراح صاحب جبيل بعد أن دفع مبلغاً من المال ولأنه كان يعادي صاحب طرابلس.

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢١ ـ البداية والنهاية ٣١٣.

(٢) السلوك ٧٤٧ ـ من تاريخ سوريا جـ ٦ ص ٢٩٩.

(٣) السلوك ٧٤٧ ـ بدائع الزهور ٣٥٩ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٠٧ ـ النجوم الزاهرة ٣٢١ ـ المختصر جـ ٤ ص ٢٣ لم يذكر عدد المجانيق ـ العيني ص ٣٨٠ تاريخ الفتح ٤ جمادي الآخرة.

وعلى أثر سقوط طرابلس بيد السلطان تتابع استسلام بقية الحصون القريبة منها استسلمت جبلة وحصونها ثم حصن أنفة وقد أمر السلطان بهدمه وكذلك استسلم حصن البترون.

استشهد من المسلمين الأمير عز الدين معن والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني وخمسة وخمسون جندياً.

غادر السلطان المدينة بعد تحريرها إلى دمسق منتصف جمادي الأول بعد أن أمر بتدميرها، واستقر الجيش في حصن الأكراد مع النائب سيف الدين بلبان ثم أعيد تعميرها على أيدي المسلمين[١]، واستقر بها نائب السلطان.

وهكذا عادت طرابلس إلى المسلمين بعد احتلال دام من ٥٠٣ إلى ٦٨٨هـ وقد تغنى الشعراء بهذا النصر فنظم الشاعر بدر الدين البزاز قصيدة مطلعها

أدركت بالجد غاية الطلب　　　ونلت بالجد أعلى منتهى الرتب[٢]

أرسلت الكتب إلى أقطار العالم الإسلامي تحمل في طياتها البشائر بتحرير طرابلس منها كتاب إلى صاحب اليمن من إنشاء القاضي تاج الدين[٣].

وفي شعبان أصدر السلطان مرسوماً يمنع بموجبه استخدام أهل الذمة اليهود والنصارى في أعمال الدواوين فصرفوا منها[٤].

وكأن أهل عكا لم يتعظوا ولم يستفيدوا من تجاربهم السابقة مع سلاطين المماليك إذ كانوا ينتهزون الفرص لنقض المعاهدات وفسخ الهدنة مع المسلمين فأقدموا على قتل تجار مسلمين كانوا في المدينة وعاثوا فساداً بقطع الطرق والاعتداء على التجار مغتنمين فرصة وجود الجيش في طرابلس.

---

(١) السلوك ٧٤٨ ـ المختصر ٢٣ ـ العيني ٣٨٢ ـ مرآة الجنان ٢٠٧ ـ النجوم الزاهرة ٣٢٢ ـ الذهبي ٣٥٧.

(٢) العيني ٣٨٣ ـ النجوم الزاهرة ٣٢٢ و ٣٢٣.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٣.

(٤) السلوك ٧٥٣ ـ النجوم الزاهرة ٣٢٤ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٤.

غضب السلطان لهذه التصرفات السيئة وصمم على دخول عكا لطرد فول الغزاة منها، إذ كانت الإمارة الصليبية الوحيدة التي بقيت بعد تحرير طرابلس[1].

بدأ بالاستعداد للمعركة الحاسمة لوضع حد لتصرفات سكان عكا مع نهاية الحروب الصليبية. أمر بصنع الأسلحة وتجهيز الجيوش في بلاد الشام لهذا الأمر الجليل وأرسل إلى عكا الأمير شمس الدين سنقر المساح لمناوشتهم وصرفهم عن الاستعداد للجيش الإسلامي فنزل في اللجون. وإذ بفرسان عكا خرجوا. ودار قتال بين الفريقين عدة أيام علم السلطان به، وكان قد شرع بالاستعداد للمعركة الفاصلة، أمر الأمير شمس الدين سنقر الأعسر بجمع المال اللازم، ففرض على قرى الغوطة والمرج ما بين ٥٠٠ و ٢٠٠٠ درهم على الرجل. وجبى كذلك من قرى بعلبك والبقاع. وسار الأمير إلى واد بين جبال عكا وبعلبك لقطع الخشب للمجانيق، كان الطقس شتاء فسقط ثلج كثير كاد يهلكه مع قاطعي الأهشاب وقد نجوا بأعجوبة وبقيت الأخشاب تحت الثلج إلى الصيف فتلف أكثرها[2].

كان السلطان يقيم بظاهر القاهرة بمخيمه بمسجد التبن وهمه فتح عكا وذلك في شوال. فتوعك لليلته واشتد به المرض إلى أن وافته المنية ليلة السبت ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م بعد أن حكم احدى عشرة سنة وشهرين و ٢٤ يوماً وكان له من العمر سبعون سنة فتكون ولادته ٦١٩هـ. وخلفه ابنه الأشرف خليل نهار الأحد ٧ ذي القعدة ٦٨٩هـ[3].

عهد الأشرف الخليل ورحيل الصليبيين عن الشرق

كان على السلطان الجديد أن يكمل مهمة والده لطرد الصليبيين من عكا آخر معقل لهم في الشرق. وكان والده يستعد لمهاجمتها عندما وافته المنية.

وفي المحرم ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وفدت على السلطان الجديد الأشرف رسل عكا يعتذرون عما بدر منهم ويطلبون تجديد الهدنة، وكانوا قد قتلوا

(١) السلوك ٧٥٣ ـ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٤ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٤.

(٢) السلوك ٧٥٤ ـ البداية والنهاية ٣١٧.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤ ـ البداية والنهاية ٣١٧ ـ المختصر جـ ٤ ص ٢٣.

التجار المسلمين في المدينة عندما بلغهم نبأ وفاة السلطان قلاوون[1].

رفض الأشرف مطالبهم جميعها وبدأ بالاستعداد لاسترجاع المدينة منهم[2]. أرسل الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار إلى بلاد الشام لتجهيز المجانيق وآلات الحصار[3].

وصل إلى دمشق في آخر صفر وأتم صنع المجانيق في ١٢ ربيع الأول وسار بها الأمير علم الدين سنجر الداودار أحد أمراء الشام ووزعها على الأمراء ومقدمي الألوف فنقلوها بدورهم إلى المراكز المخصصة لها. وسار بالجيش الأمير حسام الدين لاجين نائب الشام في ٢٠ ربيع الأول من دمشق وكذلك قدم من القاهرة الأمير سيف الدين طغريل الأيغاني إلى دمشق لاستنفار عساكر الحصون الشامية والحضور ومعهم المجانيق. فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الأفضل والمؤيد مع جيش حماة إلى حصن الأكراد[4] حيث تسلموا منجنيقاً كبيراً اسمه المنصوري حملته مئة عجلة وساروا نحو دمشق. وكان الفصل شتاء حيث سقطت الثلوج بغزارة مما أدى إلى الإبطاء في السير وموت كثير من الثيران التي تجر عجلات المنجنيق. واستمر المسير شهراً إلى عكا بينما الوقت الكافي ثمانية أيام للخيل[5].

ووصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطان في طرابلس ومعه المجانيق في ٢٤[6] منه توجه النواب على رأس جيوشهم إلى عكا.

كان السلطان الأشرف مقيماً في القاهرة. وعندما عزم على المسير إلى عكا طلب من الخليفة أن يحث الناس على الجهاد ضد الصليبيين، ارتدى

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٧.

(٢) السلوك ٧٦٢ ـ مرآة الجنان ص ٢٠٨ ـ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ـ بدائع الزهور ٣٢١.

(٤) المختصر جـ ٤ ص ٢٤ ـ شفاء القلوب ٤٥٦ ـ السلوك ٧٦٣ ـ النجوم الزاهرة جـ ٥ ـ البداية والنهاية ٣٢١.

(٥) المختصر ٢٤ و ٢٥ ـ شفاء القلوب ٤٥٦.

(٦) السلوك ٧٦٤.

الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله السواد وخطب بالناس في جامع القلعة وحثهم على الجهاد فأسرع الناس يلبون نداء الخليفة[١].

ثم جمع السلطان العلماء والقضاة والأعيان والقراء بالقبة المنصورية بين القصرين عند قبر أبيه ليلة الجمعة ٢٨ صفر وباتوا ليلتهم هناك. وصباح الجمعة تصدق السلطان على الفقراء والمحتاجين بمبالغ من المال وكذلك على المدارس والزوايا والربط والخوانق وعاد إلى القلعة[٢].

ويوم الثلاثاء ٣ ربيع الأول ٦ آذار سار السلطان يريد عكا[٣]، وأرسل نساءه إلى دمشق فوصلوا إليها في ٧ ربيع الآخر ١٢ آذار. وكان وصول السلطان إلى عكا يوم الخميس ٣ ربيع الآخر ٥ نيسان ووصلت المجانيق في نهار الجمعة ٤ ربيع الآخر ٦ نيسان وعددها اثنان وتسعون منجنيقاً[٤]. منها يرمي قنطاراً دمشقياً، وفيها مجانيق شيطانية[٥].

استمر نصب المجانيق أربعة أيام وأقيمت حولها السواتر. وبدأ الحصار.

أما بالنسبة إلى عكا فقد أتت إليها النجدات من الصليبيين، وصلت إليها السفن من قبرص بقيادة ملكها نفسه ولكنه انسحب بعد ثلاثة أيام عندما لاحظ ضعف المقاومة[٦] وحاول رئيس الفرسان الهيكليين وكان صديقاً للسلطان بالوساطة فسار إلى السلطان يطلب هدنة، أجابه السلطان إلى مطلبه مشترطاً بأن يدفع كل نصراني دينار بندقياً، عاد إلى داخل المدينة وعرض على سكانها الشرط وكانوا مجتمعين في كنيسة الصليب، خالفوه واتهموه بالخيانة[٧].

استمر الحصار إلى السادس عشر من جمادي الأولى/ ٢١ نيسان والقتال على أشده. كانت أبواب المدينة مفتوحة وهم يقاتلون فيها. وكان على رأس

---

(١) بدائع الزهور ٣٦٨.
(٢) السلوك ٧٦٤.
(٣) بدائع الزهور ٣٦٨ ـ عدد المجانيق ٧٥ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٠٩ ـ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥.
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥.
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٦.
(٦) المختصر جـ ٤ ص ٢٥.

الميمنة للجيش الإسلامي العسكر الحموي والبحر على اليمين. كانت السفن الصليبية تحمل مراكب مسقوفة بالخشب وجلود البقر يرمي منها الجنود بالنشاب الجيش الإسلامي. ثم أحضر الصليبيون بطسة (مركباً كبيراً) يحمل منجنيقاً يرمي على خيامهم وأصابهم بأضرار جسيمة. وذات ليلة هبت عليه عاصفة قلبته وتحطم المنجنيق وبذلك زال خطره عن المسلمين[1].

وقام الصليبيون ليلاً بهجوم مفاجىء اخترقوا الحصار وهزموا اليزكية، وصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب. حتى أن فارساً صليبياً منهم وقع في مكان استراحة أحد الأمراء فقتل، وارتد عليهم المسلمون بهجوم مضاد فولوا مدبرين إلى داخل المدينة. وقتل جند حماة عدداً منهم. وفي الصباح علّق المظفر رؤوس القتلى في رقاب الخيل التي غنمها منهم وأرسلها إلى السلطان الأشرف[2].

شدد الأشرف الحصار ونقبت أسوار المدينة نتيجة القصف الشديد. ويوم الجمعة ١٧ جمادي الأولى[3] عزم السلطان على دخول المدينة، رتب كوساته على ثلاثماية جمل[4] وأمر بضرب المدينة دفعة واحدة. ارتعب لذلك سكانها. ثم زحف بكامل جيشه نحو المدينة قبل شروق الشمس. وبعد ثلاث ساعات ومع ارتفاع الشمس ارتفعت الأعلام والبيارق الإسلامية فوق أسوار عكا. ولاذ سكانها بالفرار بحراً لأنه المنفذ الوحيد لديهم وقد مات عدد كبير منهم بالازدحام، والمسلمون يتتبعونهم قتلاً وأسراً، فكان الأسرى نساء وأطفالاً بأعداد كبيرة[5].

وتحصن الديوية والاسبتاريين والأرمن في أربعة أبراج وسط المدينة. وفي الثامن عشر/ ٢٢ نيسان وصل الجيش إلى برج الديوية فطلب من فيه الأمان فأجابهم السلطان. ولما استسلموا تعرض لهم الجند، فأغلق الصليبيون

(١) المختصر جـ ٤ ص ٢٥ ز- شفاء القلوب ٤٥٦.
(٢) المختصر ٢٥ ـ شفاء القلوب ٤٥٦.
(٣) بدائع الزهور ٣٦٨ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٠٩ ـ البداية والنهاية ٣٢١.
(٤) السلوك ٣٦٥.
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦ ـ السلوك ٧٦٥ ـ مرآة الجنان ٢٠٩.

أبواب البرج وقتلوا جماعة من المسلمين ورموا العلم السلطاني، عندئذ فرض السلطان عليهم الحصار من جديد[١].

وفي اليوم ذاته طلب الاسبتارية والأرمن الأمان فأمنهم السلطان. ثم إستسلم الديوية نهار الأحد ١٩ فأمنهم كذلك وسمح لهم بالتوجه إلى حيث يشاؤون. فلما خرجوا قتل المسلمون ألفين وأسروا منهم مثل هذا العدد لقتلهم الأمير أقبغا الذي ذهب لإعطائهم الأمان وهذا يدل على عدم أمانتهم وخيانتهم للعهود والمواثيق. فرفض من بقي بالبرج من الديوية الاستسلام واستبسلوا بالمقاومة وأسروا خمسة مسلمين ألقوا بهم من أعلى السور فمات ثلاثة ونجا اثنان، رغم معرفتهم وقناعتهم بعقم المقاومة لأنها لا تجدي وأن البرج لا محال ساقط بيد المسلمين. وأخير استسلموا دون قيد أو شرط ثم أمر السلطان بعزل الرجال عن النساء والأطفال حيث أمر بقتل الرجال[٢].

بعد أن تم تطهير المدينة من الصليبيين والقضاء على فلول المقاومة فيها أقبل عشرة آلاف صليبي مستأمنين ولكن بعد فوات الأوان، أمر باعتقالهم وتوزيعهم على الأمراء حيث قتلوهم عن آخرهم[٣].

وهكذا تحررت عكا من رجس الاحتلال الصليبي بعد حصار دام أربعاً وأربعين يوماً. واستشهد عدد من الأمراء منهم علاء الدين كشتغدي الشمسي وعز الدين أيبك العزي نقيب العساكر وسيف الدين أقش الغتمي وبدر الدين بيليك المسعودي وشرف الدين قيروان الكزي وأربعة من مقدمي الحلقة ومئة وعشرون من مماليك السلطان وعدد من أفراد الجيش[٤].

ولكي لا تبقى عكا محط أنظار الغرب والحصن الذي يحتمون فيه وموطىء القدم لهم والانطلاق إلى القدس، قرر السلطان الأشرف تدمير المدينة نهار السبت ١٨ جمادي الأولى بعد دخولها مباشرة، فهدمت الأسوار

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨.

(٣) المختصر جـ ٤ ص ٢٥ ـ السلوك ٧٦٥.

(٤) السلوك ٧٦٥ ـ بدائع الزهور ٣٦٨.

والكنائس وأحرقت، وأمر بنقل الأسرى إلى الحصون ولم يعد من خطر لاقتحام تلك الحصون بعد زوال الاحتلال الصليبي[١].

ونقل الظافرون باب الرخام الأبيض إلى القاهرة وكان على مدخل كنيسة فيها وركب في المدرسة الناصرية[٢].

كان تحريو عكا من أهم الأعمال العسكرية لأنها كانت المعقل الأخير للصليبيين وتشكل حاجزاً على الطريق التجارية براً وبحراً بين مصر والشام، وتضايق المسافرين المسلمين واحتفلت دمشق بتحرير عكا زينت المدينة بأبهى الزينة وكان يوماً مشهوداً من أيامها[٣].

تحرير ما تبقى من الحصون

بعد إستسلام عكا أخذت حصون الصليبيين وقلاعهم على الساحل الواقع إلى الشمال منها بالسقوط الواحد تلو الآخر بيد جيش السلطان الأشرف، إذ أن العاصمة الرئيسة سقطت فلا بد لبقية القلاع والمدن الصغيرة من الاستسلام وهذا أمر طبيعي.

بعد دخول عكا أرسل السلطان الأمير علم الدين سنجر إلى صور. وأثناء وجوده وصلت مراكب الفارين من عكا، فحال دون دخولها إلى ميناء المدينة، واستسلمت صور[٤] وتبعتها حيفا وقسم من صيدا سلماً. تسلم الأمير علم الدين صور في ١٩ جمادي الأولى وصيدا في ٢٠ منه[٥]. وبلغ المسلمين أن بعض الصليبيين تحصنوا في أحد أبراج صيدا رافضين الاستسلام وأمر السلطان بهدم تحصينات صور وصيدا وعثليت وحيفا. توجه الأمير شمس الدين نبا الجمقدار ابن الجمقدار في ٢١ منه لهدم تحصينات صور.

---

(١) السلوك ٧٦٥ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢١ ـ المختصر جـ ٤ ص ٢٥.

(٢) بدائع الزهور ٣٦٨.

(٣) النجوم الزاهرة ص ٨ جـ ٨.

(٤) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨ ـ البادية والنهاية ٣٢١ ـ الذهبي ٣٦٥.

(٥) بدائع الزهور ٣٦٨ ـ مرآة الجنان ٢٠٩ ـ النجوم الزاهرة ١٠ ـ البداية والنهاية ٣٢١ ـ الذهبي ٣٦٥.

وصادف أمر غريب هوان الصليبيين لما قدموا إلى صور كان واليها من قبل الفاطميين عز الدين نبا فارتشى وسلم المدينة للغزاة ورحل إلى دمشق، فقدر الله خرابها على يد الأمير شمس الدين نبا بن الجمقدار[١].

وقد رأى الشيخ شرف الدين البوصيري في منامه قبل أن يخرج السلطان الأشرف إلى عكا شخصاً أنشده:

قد أخذ المسلمون عكا   وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم   خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت   لا تركوا للفرنج فلكا

وتغنى الشعراء بفتح عكا المبين فأنشد الشهاب محمود الحلبي كاتب الإنشاء، لما عاين ما حل بعكا من الدمار:

مررت بعكا بعد تخريب سورها   وزندأوار الناصر في وسطها واري
وعاينتها بعد التنصر قد غدت   مجوسية الأبراج تسجد للنار[٢]

وقال ابن ضامن الضبع بعكا:

أدمى الكنائس أن تكن عبثت بكم   أيدي الليالي أو تغير حال
فطالما سجدت، لكن فوارض   شم الأنوف جحاجح أبطال
فعزاء عن هذا المصاب فإنه   يوم بيوم والحروب سجال
هذا بذاك ولا فغير دهرنا   ولكل دهر دولة ورجال[٣]

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر في ذلك:

يا بني الأصفر قد حل بكم   نقمة الله التي لا تنفصل
قد نزل الأشرف في ساحلكم   فأبشروا منه بصك متصل[٤]

بقي برج صيدا بيد الصليبيين ولم يستسلم، فتوجه الأمير سنجر

---

(١) السلوك ٧٦٦ ـ المختصر جـ ٤ ص ٢٥.

(٢) السلوك ٧٦٦ و ٧٦٧ ـ بدائع الزهور ٣٦٩.

(٣) السلوك ٧٦٦ و ٧٦٧.

(٤) السلوك ٧٦٧ ـ بدائع الزهور ٣٦٩.

الشجاعي نائب السلطان في الشام في ٤ رجب إلى صيداوحاصر البرج وفتحه في ١٥ منه وعاد إلى دمشق لوداع السلطان الذي توجه إلى القاهرة.

بعد وداع السلطان قصد الأمير بيروت ففتحت أبوابها له مستسلمة، نزل بالقلعة، اعتقل الرجال وألقى بهم في الخندق وكان دخوله إليها في ٢٣ رجب. ثم دخل مدينة جبيل وأمر بتدميرها فسويت بالأرض[١].

لما رأى سكان حصن عثليت ما حل بصليبيي الساحل أحرقوا محاصيلهم وهربوا بحراً فدخله المسلمون مستهل شعبان وهدموه[٢]. وكذلك فعل سكان أنطرسوس عندما سمعوا بسقوط القلاع والحصون غادروا المدينة فراراً إلى أرواد فدخلها الأمير سيف الدين بلبان نهار الخميس ٥ شعبان ٦٩٠هـ/ ١٢٩١ م[٣].

بعد تحرير الساحل من الصليبيين عاد إلى دمشق الأمير سنجر الشجاعي نائب السلطان في ٢٧ رمضان ٦٩٠هـ/ ١٢٩١ م بعد أن نظم أمور المناطق المحررة[٤].

وهكذا جلا آخر جندي صليبي عن الشرق في العصور الوسطى سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

(١) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠ ـ البداية والنهاية ٣٢١.

(٢) مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٠٩ ـ النجوم الزاهرة ص ١٠ ـ المختصر ٢٥ ـ الذهبي ٣٦٥.

(٣) النجوم الزاهرة ١٠ و ١١ ـ البداية والنهاية ٣٢١ ـ المختصر ٢٥.

(٤) السلوك ٧٦٩ ـ مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٠٩ ـ البداية والنهاية ٣٢١.

المصادر

١ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب تأليف أحمد بن إبراهيم الحنبلي المتوفي ٨٧٦هـ. تحقيق ناظم رشيد ـ وزارة الثقافة والفنون ـ بغداد.

٢ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تأليف جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المتوفي ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م. مطبعة دار الكتب ١٩٧٧ ـ القاهرة.

٣ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك تأليف أحمد بن علي المقريزي. الطبعة الثانية ـ القاهرة ٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ.

٤ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما تيسر من حوادث الزمان تأليف الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي المتوفي سنة ٧٦٨هـ ـ ١٣٦٦م. منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت.

٥ ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان تأليف بدر الدين محمود العيني المتوفي سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م. عصر سلاطين المماليك ـ مركز تحقيق التراث ـ الهيئة المصرية العامة ٦٤٨ ـ ٦٨٨هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٨٩م.

٦ ـ العبر في أخبار من عبر تأليف مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي ٧٤٨هـ ـ ١٣٤٧م الجزء الخامس تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م مطبعة حكومة الكويت «الذهبي».

٧ ـ تاريخ ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر. . . للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي المتوفي ٨٠٨هـ الجزء الخامس ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م بيروت.

٨ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تفربي بردى الأتابكي ٨١٣ ـ ٨٧٤هـ. دار الثقافة والإرشاد القومي. مصر الأجزاء ٦ ـ ٧ ـ ٨.

٩ ـ البداية والنهاية تأليف الحافظ ابن كثير الدمشقي المتوفي ٧٧٤هـ. الجزء ١٣ ـ الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

١٠ ـ المختصر في أخبار البشر تاريخ أبي الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفدا الأيوبي الجزءان الثالث والرابع ـ دار المعرفة.

١١ ـ معجم البلدان تأليف الحموي شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي البغدادي. دار بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٢ ـ تاريخ مختصر الدول تأليف غريغوريوس أبي الفرج أهرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري دار الرائد اللبناني ـ الحازمية. لبنان.

١٣ ـ من تاريخ سوريا الدنيوي والديني تأليف مطران بيروت الماروني يوسف إلياس الدبس.

١٤ ـ تاريخ الحروب الصليبية تأليف ستيفن رنسيمان عربه الباز العريني داز الثقافة بيروت.

١٥ ـ فتوح الشام للواقدي وبهامشه تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولادة والسلاطين المكتبة الشعبية ـ بيروت تأليف الشيخ الإمام عبد الله الشرقاوي.

١٦ ـ خطط الشام ـ تأليف محمد كردعلي ـ مكتبة النوري ـ دمشق.

١٧ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٨ ـ كنز الدرر وجامع الغرر الجزء الثامن الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية تأليف أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري تحقيق أولرخ هارمان ١٣٩١/ ١٩٧١. «كنز الدرر».

١٩ ـ ذيل مرآة الزمان للشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني البعلبكي

الحنبلي المتوفي ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م الطبعة الأولى مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م أربعة مجلدات.

٢٠ ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور تأليف محي الدين بن عبد الظاهر رئيس ديوان الإنشاء ج. ع. م وزارة الثقافة والإرشاد القومي الحقبة ٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ.

٢١ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين للحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي المتوفي ٦٦٥هـ دار الجيل بيروت.